

رياض الصالح الحسين

١٩٥٤- ١٩٨٢



المتوسط

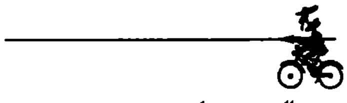

الأعمال
الكاملة
رياض الصالح الحسين
١٩٥٤- ١٩٨٢

أشرف على إعداد هذا الكتاب
الشاعر السوري **عماد نجار**، ابن أخت الشاعر الراحل رياض الصالح الحسين.

المؤلف: رياض الصالح الحسين/ عنوان الكتاب: الأعمال الشعرية الكاملة
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

طُبع هذا الكتاب بالتعاون مع مؤسسة **نايانيل** للثقافة ورابطة **الكتّاب السوريين**

ISBN: 978-91-87373-63-3



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

سيرة موت ناقص

منذر مصري

كتب خلف علي الخلف عن رياض الصالح الحسين: «سيأتي اليوم الذي يصبح فيه تدقيق معلومات عن رياض أمراً ليس هيناً» والصحيح، أن هذا اليوم جاء منذ زمن. وإذا أردنا التحديد، كان تماماً يوم السبت: ٢٠/١١/ ١٩٨٢، يوم وفاة رياض الصالح الحسين، واختفاء الإنسان الوحيد الذي كان باستطاعتنا سؤاله عما يصعب ويلتبس علينا معرفته عنه وعن حياته، إلاّ أننا يوماً لم نفعل. وكأنه كان من الطبيعي ألاّ نفعل، فمن كان يصدق، من كان يخطر على باله، أن رياض سيموت وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين!؟ وها أنذا، بمناسبة إصدار أعمال رياض الشعرية الكاملة. وهل هناك مناسبة أهم!؟. وأنا أذكر وأدقق كل معلومة استطعت الحصول عليها من أقاربه وأصدقائه وما اجتهد آخرون وأدلوا بدلائهم عنه، أجد في كل تفصيل هذه الصعوبة التي ذكرها خلف، ليس في تواريخ ولادته ووفاته وتنقّله من مدينة لأخرى فحسب، بل أيضاً الاسم، فهو مرة رياض صالح الحسين، كما على غلاف (خراب الدورة الدموية) وورقة النعوة، ومرة رياض الصالح الحسين كما على بقية كتبه ومقالاته ورسائله!؟ فالغموض أيضاً يطال درجة تعليمه، فقد توقفت دراسته بسبب مرضه، وهو في الصف السابع، ولا يعرف ما إن كان قد تقدّم لنيل شهادات لاحقة بشكل حرّ أم لا، وإنْ لا يعتقد ذلك. كما لا يوجد تأكيد ما هوِ نوع مرضه، أهو قصور كلوي طارئ أم ولادي، أم التهاب كبد، ما كان يجعله عَطِشاً دائماً، فيضطره للاستيقاظ ليلاً وشرب الكثير من الماء، كما أنني لم أستطع أن أجزم ما إذا كان رياض ابن الزوجة الأولى لأبيه، كما يؤكد نذير جعفر،

ويستدل به على ضعف الرباط العائلي عند رياض، أم أن أمه هي الزوجة الثانية لأبيه والتي توفيت عام /٢٠٠٠/!؟ كما يؤكد ابن أخته عماد نجار، الذي هو نفسه لم يعرف شيئاً عن عائلة أمه إلا بعد أن شبَّ وعلم أن له خال شاعر اسمه (رياض الصالح الحسين)، وأن هذا الخال له كتب، وأن الناس تتكلم عنه!؟. لم أستطع أن أجزم حتى تأكدتُ من أن لقب الزوجة الثانية (أم رياض)، ما حسم هذه النقطة نهائياً.

ولكن ماذا يهمّ في كل هذه التفاصيل!؟ فرياض مات في عمر أصغر من أن يكون له سيرة حياتية حافلة بالأحداث والمواقف، وهذا كل شيء!. أو لأقل، ولد رياض ومات ولا شيء ذا أهمية قصوى في حياته. إلاّ شعره!؟. أو ربما مرضه، الأمر الذي أدى إلى تلك المأساة، والشعور بالفاجعة عند التفكر بموته الباكر. كما ينبغي ألا أفوت ذكر كيف كان رياض لا يحب التطرّق لهذه الخصوصيات!. يوماً لم أسمعه يتحدث عن أهله ولا عن دراسته.. أمّا مرضه، فقد كان يودُّ لو أمكنه أن يخفيه عن الجميع!. ولأن هذا لم يكن ممكناً فعلى الأقل يمكنه أن يجعل الحديث عنه محظوراً.. كان أكثر ما يغيظه أن ينتبه أحدٌ ما، من خارج دائرة أصدقائه ومعارفه، لإعاقته السمعية والنطقية ويسأله عنها!. كان. تحاشياً لجلوس فضولي ما بجواره. يحجز مقعدين في الباص كلّما سافر. كان يريد أن يخفي أي عيبٍ أو نقصٍ بنظر الآخرين. مما أدّى إلى أن لا يُعرف عنه سوى الشذرات، سوى أشياء حدثت للآخرين معه، أما الباقي فلا شيء مؤكّد، وهذا يفسّر ما انتهى إليه ابن أخته عماد نجار عند بحثه عمن كان يعرف خاله جيداً، حين قال لي: «وكأنّه لم يكن له صديق حقيقي». كان رياض يريد أن يكون صحيحاً، لا ينقصه شيء كالجميع، كاملاً أو شبه كامل كالجميع، وقابلاً لكل شيء، وأكثر من كل شيء.. للعلاقات العاطفية، وللحب، الذي كان رياض يفعل كل شيء للحصول عليه، فهو الدليل على أنه لا يعيبه شيء، لا أهل ولا دراسة ولا مرض.. الحب شاغله الأول والأخير أما بقية الشواغل مهما كانت. ففي الوسط.

ما يلي.. سيرة ناقصة لشاعر مات وترك كل شيء ناقصاً. سيرة حياة جاءت نهايتها على عجل!. ذلك أن الموت لسبب أو لآخر راح يكمن لها عند كل منعطف أو تقاطع، ثم برز من مكمنه وقطع طريقها عند أقرب فرصة.. حياة تنبع ثم تجري منحدرة كنهر، لتصب كالشلال في بحيرة الموت. أما التفاصيل التي سترد رغم حرصي على صحتها إلى هذا الحد أو ذاك، فليست سوى شظاياها:

- ١٩٥٤/٣/١٠، ولد (رياض الصالح الحسين) في درعا، جنوب سوريا، كما في بطاقة هويته، وكان يمازحني دائماً بأنه يصغرني بأربع سنوات ولديه ثلاث مجموعات بينما أنا لدي مجموعة واحدة!.

- أبوه (صالح الحسين الصالح) من بلدة (مارع) شمال حلب، متطوع في الجيش، وصل إلى رتبة مساعد أول، تنقل وعاش مع عائلته في عدد من المدن السورية وتوفي في عام ١٩٩٣. وأمه زوجة أبيه الثانية (سامية ليلى) توفيت عام ٢٠٠٠.

- لديه من زوجة أبيه الأولى أخوان (حسين وحسن)، ومن أمه ستة أشقاء (نورس وهيثم ونضال وحسان وأكرم وأيمن) وثلاث شقيقات (مها ونوف وغادة).

- نال رياض الشهادة الابتدائية في منطقة دمر البلد، ودرس ثلاثة أشهر من الصف السابع في قدسيا. ثم اضطر لترك الدراسة بسبب مرضه بالتهاب المجاري البولية، تطور ليغدو قصوراً كلوياً حاداً، مما أدى لإجراء عملية جراحية في مشفى المواساة بدمشق، عام /١٩٦٧/، كان من نتائجها أنه فقد السمع والقدرة الطبيعية على النطق.

- في عام /١٩٧٤/، قام بعملية جراحية ثانية في بلغاريا. للتخفيف من عواقب العملية الأولى، حيث تعرف على سمر المير. (س) التي أتى على ذكرها في قصائد عديدة.

- كان على علاقة قريبة من الأمومة بأخته من أمه (فريزة) زوجة الممثل الحلبي الراحل (عبد الوهاب الجراح).

- في عام /١٩٧٥/ جاء إلى حلب وسكن في حي (الصاخور) وحصل على وظيفة عامل مياوم في شركة خاصة للغزل بحي التل بحلب، حيث تعرف على الشاعر (علي كتخدا) ثم انتقلا للعمل معاً بفرز الأوراق في مؤسسة الأمالي الجامعية، التابعة لاتحاد طلبة جامعة حلب. وهناك تعرف أيضاً على نذير جعفر، الذي كتب عنه في روايته (تحت سقف واطئ).

- شكلت صداقته مع الشاعر بشير البكر الذي جاء من الحسكة ليدرس في كلية الزراعة في جامعة حلب، مفصلاً هاماً بحياته، فقد أدخله بشير في الوسط الثقافي وجو الأدب والشعر. فتعرف على الروائي (نبيل سليمان) وكان يعمل في التدريس بثانويات حلب، والقاص (نجم الدين سمان)، والشاعر (حامد بدرخان)، وأغلب أدباء حلب.

- بدأ بنشر قصائده بشكل جدي منذ عام /١٩٧٦/. وكانت في البداية كما حدث لأغلب شعراء قصيدة النثر من جيل السبعينات، إن لم نقل لجميعهم، موزونة ومقفّاة، في مجلة (جيل الثورة)، وهي دورية شهرية صدرت لفترة لا بأس بها عن الاتحاد الوطني لطلبة سوريا، وكان يرأس تحريرها آنذاك (لؤي عيادة)، الذي ساعد رياض على أن ينشر على صفحاتها عدة قصائد ومتابعات ثقافية ضمّنها رياض أفكاره عن الشعر والوسط الثقافي السائد حين ذاك، مقابل مكافآت مالية متواضعة.

- في عام /١٩٧٧/، تحول رياض نهائياً لكتابة قصيدة النثر، وتعتبر قصيدتا (الرجل السيء)، و(جرثومة النبع) أهم قصائد تلك المرحلة.

- في بداية عام /١٩٧٨/، انتقل رياض للحياة في دمشق، وعمل مع

أخيه (حسن) عند أحد الخياطين. إلا إنه سريعاً ما انخرط في الجو الثقافي للعاصمة، وعمل في مكتب الدراسات الفلسطينية حتى وفاته.

- سكن في حي الديوانية الشعبي، في غرفة وحيدة بحمام ومطبخ، يصعد إليها بواسطة درج، وعلى جانب بابها، توضّعت المغسلة.

- تعرف في دمشق على أهم مؤثرين مباشرين في شعره وشخصه، بعد (محمد الماغوط)، وهما (بندر عبد الحميد) و(نزيه أبو عفش). كما تصادق مع (جميل حتمل) و(فرج بيرقدار) و(خالد درويش) و(وائل سواح) و(خليل صويلح).

- تشارك مع (وائل السواح - جميل حتمل - حسان عزت - فرج بيرقدار- بشير البكر - خالد درويش - موفق سليمان - فاديا لاذقاني) في إصدار نشرة (الكراس الأدبي) الذي صدر منه /٩/ أعداد وتوقف بعد اعتقال أغلب المشاركين به، وقد تعرضّ رياض لمزيد من التحقيق والتعذيب بغية التأكد من صممه وتعثّر نطقه. الأمر الذي ساهم بتحديد الموقف السياسي الذي حمله رياض للدقيقة الأخيرة والكلمة الأخيرة من حياته. وأظنه ما زال يحمله في موته.

- في عام /١٩٧٩/، صدرت عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي في دمشق، أول مجموعة شعرية لرياض بعنوان (خراب الدورة الدموية) لا تتضمن سوى قصائد نثرية. الغلاف والرسوم الداخلية بريشة (بشار العيسى).

- في عام /١٩٨٠/، صدرت عن وزارة الثقافة أيضاً، مجموعة رياض الثانية (أساطير يومية)، بكلمة غلاف كتبها الأستاذ أنطون مقدسي دون ذكر اسمه. أما الغلاف فكان بريشة (عاصم الباشا).

- في حزيران /١٩٨٢/، قبل وفاته بخمسة أشهر، صدرت مجموعته

الشعرية الثالثة (بسيط كالماء واضح كطلقة مسدس) عن دار الجرمق الفلسطينية، دمشق. بتقديم مسهب لسعدي يوسف، تردّد رياض في تضمينه كمقدمة للمجموعة، لكنه، ليس فقط لأهمية اسم سعدي بل أيضاً لقدرة رياض على تقبل واستيعاب كل ما تضمنه التقديم من ملاحظات. وكان الغلاف هذه المرة بريشة (يوسف عبدلكي)، والرسوم الداخلية بريشة (ليلى نصير).

- في الفترة الأخيرة من حياته كان شديد القرب من الشعراء العراقيين المقيمين في دمشق، (مهدي محمد علي) و(هاشم شفيق) و(كريم كاصد). فالسوريون، كانوا دائماً، مشغولين بأنفسهم.

- يأتي ذكر أسماء فتيات، صادقهن رياض وأحبهن، إلاّ أنه في آخر سنة عاشها، كان مولها بفتاة عراقية، تدعى (هيفاء أحمد)، يذكر أنها كانت أرملة ولديها طفلتان، وهي ابنة أخت عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، مقيم مع عائلته في دمشق، وقد تقدم رياض لخطبتها رسمياً مصطحباً معه (مهدي محمد علي) وصديقين عراقيين.

- يخبر صديقه منذر مصري في رسالة بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٠: (أما أنا فأبحث عن كوخ للزواج، فالأمر أصبح جدياً، والطفل يقرع الجدران).

- تعرض رياض لأزمة عاطفية قاسية، عندما قطعت (هيفاء أحمد) علاقتها معه، إثر معرفتها برحلته إلى اللاذقية، بصحبة الفنانة التشكيلة (هالة الفيصل). مما جعله لا ينام لأيام، يقضي لياليه وحيداً، دون صحبة أحد، سوى التدخين والكحول، مما أدى، لانهياره بالكامل، صحياً وذهنياً.

- وصدف آنذاك أن كان (مهدي محمد علي) في زيارة لدمشق، وحين لم يلتق به في مقهى الروضة، أو في مكتب مجلة (البديل) التي يقوم

مهدي بتحريرها، لأيام، وعدم معرفة الجميع بأحواله عند سؤالهم عنه، قرر أن يذهب هو و(هاشم شفيق) إلى غرفته ويستفقده، ليجده مكوماً فوق سريره، على شفير الموت، يرتجف ويهلوس، ويطلب ماء، فراح مهدي يعبئ الماء من الصنبور خارج الغرفة براحتيه ويسقيه.. كل ما في الغرفة كان في حالة فوضى شديدة.

- نقل مهدي وهاشم رياض إلى مشفى المواساة، في حالة إسعافية، عصر يوم الجمعة ١٩٨٢/١١/١٩.

- غادر مهدي وهاشم المشفى بعد أن قاما بكل ما يستطيعانه، فأمضى رياض الليلة الأخيرة من حياته وهو غائب عن الوعي.

- عند الساعة /١٠/ صباحاً جاءت هيفاء أحمد إلى المشفى، مكثت برهة ثم غادرت.

- السبت ١٩٨٢/١١/٢٠ الساعة الرابعة مساء، أعطى الموت أوامره النافذة بإعدام كل علامات الحياة في قلب وجسد هذا الإنسان الممدد وحيداً على سرير ضيق في مشفى عام. مات رياض الصالح الحسين عن عمر لا يتجاوز /٢٩/ عاماً.

- الأحد ١٩٨٢/١١/٢١، نقل جثمان رياض عارياً إلا من سروال داخلي، من براد مشفى المواساة إلى بلدته (مارع)، حيث مضى سرب مؤلف من /١٠/ سيارات، استقلها العديد من أصدقاء رياض، واحدة منها سيارة إسعاف الهلال الأحمر الفلسطيني.

- في (مارع) استقبل ذوو رياض المعزين بفتور ظاهر، كما ذكر البعض. وبعد دفن رياض، عاد الأب معهم إلى دمشق ليجمع كافة أغراض رياض الشخصية، ويذكر (بندر عبد الحميد) أن أكثر ما اهتم به أبو رياض هو مستحقّات ابنه المالية والأمور المادية الأخرى.

- يقول مهدي إنه، رغم اضطرابه الشديد، سمح لنفسه قبل مغادرته

غرفة رياض للمرة الأخيرة، بفتح درج الطاولة وإخراج مخطوطة (وعل في غابة)، التي كانت جاهزة للطبع تماماً، حتى الإهداء: (إلى هيفاء أحمد).

- ٣٠/١٠/١٩٨٣، بعد وفاة رياض بما يقارب السنة، صدرت مجموعة رياض الصالح الحسين الرابعة والأخيرة (وعل في غابة)، التي ختمها بقصيدة عنوانها (اعتياد)، سطرها الأخير: (لقد اعتدت أن أنتظرك أيتها الثورة). ويالها من مصادفة، أن تكون آخر كلمة كتبها رياض الصالح: (الثورة).

خَرابُ الدّورةِ الدّمويّة

إلى الدنيا والناس

دخان

كئيباً ومُنفتِحاً كالبحر، أقفُ لأحدّثَكم عن البحر
مُستاءً وحزيناً من الدنيا، أقفُ لأحدّثَكم عن الدنيا
متماسكاً وصلباً ومستمرّاً كالنهر،
أقفُ لأحدّثَكم عن النهر
وعندما يصبحُ للنافذة عينان تَريان يأسي
وللجدران أصابع تتحسّسُ أضلاعي
وللأبواب ألسنةٌ تتكلّم عنّي
وعندما يصبح للماء طعمُ الماء
وللهواء نكهةُ الهواء
وللحبر الأسود هذا رائحةُ الحبر
وعندما تهيّئُ المطابعُ الأناشيد للقرّاء بدلاً
من الحبوبِ المنوّمة
وتهيّئُ الحقولُ القمحَ بدلاً من الأفيون
وتهيّئُ المصانعُ القمصانَ بدلاً من القنابل..
سأقفُ، أيضاً، سأقفُ لأحدّثَكم عنّي
لأحدّثَكم عن الحبِّ الذي يغتالُ المراثي
عن المراثي التي كانتْ تفتحُ دفترَها الملكي
لتسجلَّ أسماءَكم في قائمة القتلى
عن القتلى المتشبّثين بالضماد والميكروكروم

الذي لم يأتِ

وسأقفُ، أيضاً، سأقفُ

لأحدّثَكم عنّي

مثلما يتحدّثُ الديكتاتور عن سجونه

والمليونير عن ملايينه

والعاشق عن نهدي حبيبته

والطفل عن أُمّهِ

واللص عن مفاتيحه

والعالم عن حكّامه

سأحدّثُكم بحبّ، بحبّ، بحبّ

بعد أنْ أشعلَ سيجارة.

الرجل السيئ

«الموت! فنٌّ، ككلّ شيءٍ آخر، وإني أتقنه تماماً»
سيلفيا بلاث

وأذكر أن المرأة الزرقاء عندما رأتني أبكي جثثاً وفقراء

قالت: عيناك مرآتان لخمسين قارة من الوجع والانتظار

وقالت المرأة التي ترتدي العاصفة والوحوش:

أنت تعرف الكثير عن صبايا الأزقة المغلفات

بالأقفال البلاستيكية الملوثة

والأطفال الأغبياء المتمسكين بالأحصنة

الخشبية ونهود الأمهات

وقالت المرأة بعد أن فتحت شاشتي عينيها:

(كان ثمة عاشق يرعى فيهما شجراً ومعتقلات)

يداك قاسيتان ووديعتان

وأصابعك نحيفة ومعذبة

فهل لمست بهما الرغيف الثمين أو الشفاه

الرمادية المرتعشة؟

هل قبضت على العالم؟

وقالت المرأة لي:

أنت تهذي كثيراً بأسماء الأسماك

والأعشاب البحرية
وتفتح مملكة دماغك ليل نهار
لقوافل الفجر التائهة
وتمزق بأظافرك لحم الأبواب
والجدران السميكة
فأي الأشياء أحب إليك:
أن تمضغ بشراسة رؤوس العصافير؟
أو أن تكسّر الصحون والموائد المصنوعة
من خشب الجوز؟
وقالت لي أيضاً وهي تنظر إلى الرأس
المشوّه المتوتر في لوحة لسعد يكن:
أمك بجانبك تنحني عليك كيمامة
وأصدقاؤك يقبلونك في المناسبات
وأنا أدفئك في ليالي تشرين الباردة
وأرسل إليك الأحلام الشاسعة والمكاتيب
فماذا تطلب غير ذلك؟!..
أتريد أن تفجر النبع؟ أم تود أن تحرث المجرة؟
وقالت المرأة القاسية:
أبتكرُ لك الدنيا..
خمسة جدران بيض
وسريراً أبيض
ووردة بيضاء في كأس.
وكان يمكن أن أبتكرَ نعشاً
- أنا الرجل السيئ -

لفاطمة العنيفة ونزيه الخائف والبحر التعيس
للأقفال الكريستالية السوداء
للقرى الصاخبة بالعنب والديوك والبطون المقعرة
للأغاني الممزقة في سلة المهملات
للمعاملات العقارية المبطنة بالأختام
لحبوب الأسبرين والعشاق
لمصارعي الثيران الأذكياء في إسبانيا
للمجرفة الصلبة والفلاح الرقيق
للدم الأخضر ومرتزقة الانقلابات
أنا الرجل السيئ
كان علي أن أموت صغيراً
قبل أن أعرف المناجم الحارة والدروب
المرأة التي تغسل يديها بالعطور
والملك الذي يزين رأسه بالجماجم
الولد الخبيث ذا اللثة الطرية الذي يُقشّر
الحليب من البكتريا والحروب من الانتصارات
أنا الرجل السيئ
كان علي أن أموت صغيراً
قبل أن أعرف الأشجار الإرهابية ومافيا السلام
وفاة بائع المرطبات على سكة القطار
والغجرية التي أهدتني تعويذة وقبلة
وكثيراً من الأكاذيب
أنا الرجل السيئُ
كان علي أن أموت صغيراً

قبل أن تفترسني الوردة

وينحت الفنان النظيف من عظامي القلائد والأقراط

الفنان النظيف الوردة النظيفة

يرسم الفنان النظيف الوردة النظيفة

في حجرة ممتلئة بزجاجات البيرة

والعرايا

لافتة للفنان النظيف:

الفنان النظيف يحب الوردة الحب للوردة والوردة للسكاكين

أيتها السكاكين المسكينة

أيها الجسد الإنساني القذر

أيتها الكلاب المعبأة بالمقانق والمحبة وعبير النعناع

أنا رياض الصالح الحسين

عمري اثنتان وعشرون برتقالة قاحلة

ومئات المجازر والانقلابات

وللمرة الألف يداي مُبادتان

للمرة الألف يداي مبادتان

كشجرتي فرح في صحراء

الشمس الشمس

الشمس الناضجة

الشمس المدورة كنهد

المنتشرة كالطاعون في القرن التاسع عشر

المضيئة كعيني طفلة بقميص شفاف على البحر
الشمس الشمس
تمر بأسنانها على عنقي اليانع
وتقضم أيامي كما يقضم الطفل تفاحة أو قطعة بسكويت
فتنقفل يداي على صدري
يداي - كخطى الجنود - مُبادتان
أسأل صديقتي
(صديقتي لحم ودم وخراب)
في الشارع أسأل صديقتي
(الشارع ضيق عندما نبكي
قليل عندما نشتاق)
أسأل صديقتي:
لماذا، للمرة الألف، نباد؟
منقطعان عن الحب
ممتلئان بالخنادق كامتلاء دمية بالقش
وبعد قليل يغطي الغبار جسدينا
بعد قليل نتشبث بغصن التعب
متعبان البارحة... متعبان اليوم
وربما غداً، أيضاً، نكون متعبين
فمي مُباد ولذا لا أستطيع أن أقبلك
يداي مُبادتان ولذا
لا أستطيع أن أسرقكَ من البرد
في المقهى ننام
في الشارع نبكي

من الحقل مطرودان

من المدينة أيضاً

السيارة أداة للقتل

وغصن الزيتون مشرط لاقتلاع جلدة الرأس.

جرثومة النبع

والآن تعالوا لنحتسي قليلاً من الدهشة
والآن تعالوا لنمزق خطانا المترددة
ونلف أوجاعنا بورق السجائر الرقيق
وندخنها باطمئنان
فالمرأة والرجل
الصحارى والبحر وأشجار الصفصاف
الدموع ومعامل الإسمنت والحيوانات
كلها الآن مغلفة بالكرتون
والخشب الأفريقي الراقص
تنتظر على السفينة الكروية الصلدة
وبعد قليل ستتقدم البذلة الأنيقة
التي تحتوي رجلاً لامعاً
لتقدم الهدية إلى وحش رؤوسه بعدد
القارات والمدن والقرى
وحش لا يملك أوصاف دراكولا
فأنيابه مهذبة للغاية
ولديه امرأة جميلة ولطيفة
تأكل قلوب الأطفال
ببراعة لاعب شطرنج ماهر

وأما هو فيحب الويسكي المثلج
وقزقزة الحبال الصوتية للبلابل
وأنا..
"تعرفون أن أنا هو أنتم"
- هكذا يقول شاعر شحيح من بلاد القبعات
الواسعة والمسلسلات السريعة الطلقات -
.. أنا أحتفي بقدوم المآسي
ولدي قدرة مذهلة على هضم الأوجاع
والصفعات الرتيبة التي تأتيني كل صباح
مع فاتورة استهلاكي للأوكسجين من
المنتزهات العامة
أحب صبية بعيون وأضراس وأنف وقدمين
صغيرتين مقشّرتين بمساحيق غسل الثياب
وفي إحدى زوايا غرفتي قميص وبنطال
وحذاء للرقص زائد عن الحاجة
أوقاتي مقطعة
ومساحات عمري بتضاريس تجريدية
وأما جسدي فوكر للفئران
وأما جسدي فمصيدة للفراشات الهاربة
وكم أود لو يأتي يوم
لا يكون فيه السندويتش بثمن
والصعود إلى الجبل بثمن
والقبلة بثمن
والقبر بثمن

فعندما يمرض النبع

وتضع زهرة المشمش السم في فنجان القهوة

الصباحي لزهرة البرتقال

سيتساقط الليل بغزارة

والزجاج بغزارة

والفقراء بغزارة

والرصاص بغزارة

والمدن بغزارة

وعندما نحب بعضنا تماماً

وتقول لي البلاد كل سنة أن جواربها

العشبية قد تمزقت بحمى الفرح

فسأزرع أمام كل بيت دمية للطفل المشاكس

وأعطي صبية لكل فتىً كئيب

من بلدان العالم الثالث

وقيداً للقنابل النيترونية الخرقاء

وزجاجة عطر لأمي في عيد ميلادها

ولحبيبتي جسدي

والراتب القليل الذي أحصل عليه

لقاء قراءة المراثي على قبور أصدقائي

انظروا.. انظروا

أنا لص الأزقة الخرساء

أحمل بيدي مفاتيح العالم

مفاتيح دور سينما ملّ روادها الحالمون

النظر إلى مسدس الشريف والقبلات

الهوائية
مفاتيح بنوك متخمة بالمعاملات والموظفين
والشرطة
مفاتيح قرى تلملم نساؤها روث الحيوانات
من الحقول ليخبزن عليه فطائر
الزعتر الشهية
مفاتيح لمخترعي الأسلحة الذين يصنعون كعك
الموت لأقاربهم وأطفالهم الأعزاء
مفاتيح بيضاً للسلام
مفاتيح حمراً للثوار
مفاتيح زرقاً للعشاق
ولكن - وأقولها بأسف شديد:
إن المفتاح الزيتي الصغير الذي كان تحت
وسادتي يوم الخميس قد سرقه أحد الأغبياء
وها أنذا أقضم أظافري وأفكر بحزن:
فليلة السبت لن أستطيع أن أنسل إلى بيت
حبيبتي لألعب معها بالورق
ولذا قررت أن أموت لمرة واحدة
بدلاً من الموت سبع مرات في الأسبوع
وبما أنني لا أملك تابوتاً ولا قبراً ولا كفناً
فلقد قررت أن أحيا بعدد الموتى
وأفتح دكاناً لتوزيع الحب عليكم من خلال هذه
القصيدة.

أقمشة ونياشين وولاعات للرجال السعداء

- لا ماء في البحر
لا حياة في القبلة
لا عدالة بين نابي أفعى
ولا شمس ساطعة في قلبي
قطيع من الموتى في فمي
والغسيل على الشرفات -

موظفون لزَرْقِ الكآبة في الشرايين
ملائكة بقوانين حمورابية لاغتيال الموتى
والأحياء والقبور
محاسبون لإحصاء الأظافر والأيدي
والرؤوس المتعبة
ثيران بقوائم لطيفة لشرب البيرة وإصدار المراسيم
حشرات ملونة على الشرفات
وفراشات كالحة على الرمال
عشاق فاشلون
لوحات تشكيلية فاشلة
ربطة عنق ناجحة
دوائر، وامرأة محطمة

صورة بإطار. صورة بلا إطار

صورة بيضاء. صورة سوداء.

صورة سكوب بالألوان

ولكن ليس هذا هو العالم كله:

فالرمال مازالت ناعمة ودافئة

والبحر مازال يرسل للصيادين

الخرافات والأسماك

ماء النهر صاف

والأطفال مازالوا يحبون الفستق

ثمة رجل يبحث في جيوبه عن امرأة

ثمة امرأة تبحث عن حذائها في الطريق

والصغار يستطيعون أن يبتكروا ألف لعبة

بإصبع واحدة من الطباشير

إذن، لا تحلموا بالشمس كثيراً

فالشمس ستشرق في الساعة السادسة

وثلاثين دقيقة حتماً

إذن، لا تسألوا العصافير عن لون السماء

في البلاد البعيدة

لا تسألوا الزمن عن الذكريات

لا تسألوا الأشجار عن نكهة الفؤوس في الخاصرة

لا تسألوا الصعاليك عن رطوبة الأرصفة

لا تسألوا التوابيت عن رائحة الموتى

لا تسألوا القتلة عن رائحة الدم

ولا تسألوا سمر عن قلبي

فالأسئلة البسيطة قذيفة
الأسئلة المعقدة انتحار
ونحن سكان الأرض الأسوياء
من الأفضل أن نوزّع الأقمطة والنياشين
على مغتصبي العالم.
***

"من الأفضل أن نوزع التعب الإسبارطي والنقود البيزنطية على الناس بالتساوي"
هذا ما قالته المرأة الواسعة التي مسحت أحذية
القادة بلسانها الملتهب
وكانت تقول لي:
وأصابعها تتحرك
كقطيع من الوعول في شعري:
ألديك غرفة بطول قامتي؟
وهل نافذتها تطل على الشارع أم على المقبرة؟
المرأة التي عبرت المجنزرات بين نهديها
كسرب من النوارس البيضاء
كانت تقول لي أيضاً وهي تنتحب بانفطار:
لماذا لم أعد أراك؟
لماذا لم أعد أراك في المطر؟
هل أخذوا منك معطفك الداكن ليمسحوا به
أحذية الملوك؟
المرأة التي تركت على سترتي

صوتها المضيء
تهتم بالحب والأغاني المكتوبة
وتقول لي:
أتريد أن تقبلني؟
أتريد أن أقبلك؟
إذن، اغمض عينيك ودع الشرفة مفتوحة
المرأة التي لم تقبل أحداً منذ معركة واترلو
معركة العلمين
مذبحة دير ياسين
ومذابح العالم الأول والثاني والثالث والرابع
كانت تقول لي وهي تضع يدها الطرية
على صدري:
قلبك لم يعد طريّاً
ونبضك يدق ببرود
فهل جعلوا من قلبك منفضة لرماد سجائرهم؟
ومن شرايينك أحزمة لبواريد جنودهم؟
المرأة التي كانت تبكي في الأزمنة السعيدة
كانت تقول لي:
ألديك أصابع؟ أين هي أصابعك؟
هل سرقوها منك دون أن تدري؟
هل أخذوها عنوة بمساعدة السكاكين؟
هل سقطت منك وأنت تركض في الليلة
الفائتة وراء ظلك؟
وكانت تقول لي - المرأة اليابسة كقشور الكستناء -

الممتلئة كالكستناء

الناعمة كالكستناء

الطيبة كالكستناء:

أمس لم يسأل عنك أحد

لا ماء في البحر

ولا سمكة على الشاطئ

أمس لم يسأل عني أحد

زارني الموت ولم يكن على الرف قهوة

ولأن الموت يحب القهوة مثل جميع الناس

فلقد قلب شفتيه وصفق الباب وراءه

ومضى في قطار العتمة.

وكانت تقول لي:

أنت لا تبكي

أنت لا تبتسم

فمن احتسى دموعك بدلاً من الفودكا بالبرتقال؟

ومن أكل ابتسامتك بدلاً من فطائر الكبد

المشوي؟

فمك مغلق، ولسانك مصفّد

ترى، هل تخبئ في فمك أغنية أم نقالة موتى؟

حديثاً عن عطلة نهاية الأسبوع؟

أم طفلة بعينين مفقوءتين؟

هل نسفوا لسانك أيضاً؟

أم ثبتوه بسقف حلقك بالدبابيس الفضية؟

وكانت المرأة التي تعد على أصابعها قتلى

حروب الطبقات تقول لي:

هل تعرف نيرون؟

هل قرأت عن نيرون؟

نيرون لم يكن مذهلاً ولكنه أحرق روما

أنا هي عاصمتك المحترقة

وأعرف أنك لست نيرون

ولكن قل لي:

هل تحبني؟ هل تحبني؟ هل تحبني؟

***

هذا ما قالته المرأة الواسعة قبل أن تحمل

مظلتها الضيقة

وتمضي في المطر الناري

وأنا - المهذب، المهذب، المهذب -

التفت بمعطفي ومضيت

وأنا أذكر أنها قالت:

من الأفضل أن نبتلع المجنزرات

بدلاً من حبوب الكورسيدين!

***

سطور من كراسة الحطابين الأشرار

لصرير مفاتيح الريح

لوجه القمر المجدور

لنهار دثر بالضوء المدن المضنية بالضجة والزوّار

المدن المحقونة برئات الموتى وحبوب الـ sipon

لا يدٍ تحمل أزهارا أو أسلحة

لجماجم من قتلوا في الليل /وكان القمر كثيفاً/

ليعاسيب الأحراش المغسولة بالخضرة والدم

وللحب وللحرية كنا نغني

نحن الحطابين الأشرار

نذهب في جهة ضيقة

أو قنبلة سيئة

نكتب أسئلة فوق ضروع الأشجار:

١-الحب

أن تحب امرأةً من صفصاف وأعشاب نارية

أن تمتلئ يداك بالمسامير والبراكين الميتة

أن تُسوّي من خصلات شعرك بيتاً صغيراً

لعجوز وحيدة

أن تذكر أكثر مما ينبغي:
- الضفادع المنفوخة على ضفاف المستنقعات
- الصنوبر المنثور على الألواح الطينية
- القرنفل الأسود الذي حمله دوري بمنقاره
الصغير إلى ساحرة تعيش في كهف معتم
على قمة الجبل
أن تشرب كل يوم برميلاً من بول الموتى
وتأكل ست فؤوس وصماماً لعنفة معطلة
أن تعبئ قلبك بمصانع الأحذية والثلوج الملوثة
بالطين والأرانب المسلوخة ببلطة كان يجب
أن تقطع عنق نابليون أو غارودي أو تقطع عنقك

أن تموت بشكل مناسب وبإذعان فأرة وجدت
نفسها في مصيدة فولاذية ولا أبواب أو نوافذ للريح

أن تحب امرأة بجنون أحلام هتلر الذي كان
من الممكن أن تكفي رصاصة واحدة لتفجير
دماغه

أن تضع المسدس على صدغك مثلما تضع قطعة
كاتوه في فمك
أن تضغط على الزناد مثلما يضغط عاشق بائس
بكفيه على كتفي حبيبته
أن تنظر بشراهة إلى الأفق الرمادي البعيد

وأنت ترتدي قميصاً من الطحالب

والبثور، وحذاء من البكاء والأقبية

وأجنحة الدجاج

أن تحب امرأة:

- تحت إبطها يجري نهر أزرق

- في فمها تعوي حقول الإجاص

- في مركز السرة تماماً سهل أخضر بين

فكي شمس

أن تحب. أن تمتلئ. أن تسوّي. أن تذكر

أن تشرب. أن تعبئ. أن تضع. أن تضغط.

أن تموت. أن تنظر. أن تحب. أن تحب-

يعني ببساطة بأنك تستطيع أن تكون

جديراً بقراءة هذه القصيدة:

٢-الأيدي

بيدين ملطختين بالأزهار

بيدين معجونتين بالحمى والحشرات المؤذية

بيدين متسعتين كقلبي

طافحتين بالبرق كعيني من أحبها

بيدين تستطيعان أن تستكشفا أسرار الأزهار

وأسرار المصفحات الرهيبة

بيدين من أوراق الدوالي والأفران والسهول

والرغبات المحمومة

بيديّ هاتين أبسط لكِ سجادة الزمن البارد

- أيتها المرأة الوسيمة -
وأدعوكِ للحياة بحرارة
وأدعوك لنسيان السمكة التي هربت من البحر
لتتلقفها السماء وترسلها مخفورة بالعواصف إلى الأرض
ليتخذها الشرطي خليلة لبضعة أيام
ويقتلها، من ثم، بالغازات المسيلة للدموع.
وبيدين مصفدتين بالأسمال والبواخر المثقوبة
والبعوض
أمزق - أمامك - أنسجة جسدي
لتري الفوهات المعتمة
التي حفرتها فيه الأسلحة البيضاء والسوداء
لمن امتلكوا - طبقاً للقوانين النافذة -
فرح العالم كله
وتركوا لنا:
- المحارم الورقية الرخيصة لمسح العرق
- الأيدي لنستمر بإنتاج قوارب السباق الشراعية
- العيون لمشاهدة حياتهم الباهرة
على شاشات التلفزيونات الملونة
ونحن ملونان أيضاً:
في عنقك أغمدت ثلاث كرزات
وسرقت من فمك وردة
ونحن ملونان أيضاً:
على ظهري سبع عشرة حفرة زرقاء
ومن حلقي يندف الثلج بغزارة

وها إنني أبتسم لك بهدوء
سأحبك أيها (أيتها) العشب
سأشرب حليبك الوفي دائماً
ومع ذلك سأظل جائعاً بشكل ما إلى الخبز والمسرة
ولأنني مُهشّم كثيراً بالفؤوس
التي صنعت لتقليم الأشجار
ولأنني أشتغل لأضيء قبور موتاهم
ولأنني أهتم بالقبلة أكثر مما أهتم بالماركات
الجديدة للمسجلات اليابانية
سأستطيع، إذن، أن أرسم الخطوط الصغيرة
وأحل ببساطة معادلة الحياة التالية:

٣- الحب، أيضاً:

لقد قدموا لنا خبز الجوع في صحن من الكريستال
اللامع لأن بطوننا الصغيرة لا تستطيع
أن تتحمل كثافة منتجات الأرض الغذائية
لقد قدموا لنا جثة الأرض في تابوت من المرجان
بدعوى أنهم لا يعرفون كيف يمكن حفر
قبر لائق بها
لقد قدموا لنا الأوبئة لنتمكن من المحافظة
على ضغط السكان في المدن الكبيرة
بمعدله المتوسط
لقد قدموا لنا الرصاص لنتسلى بقتل أنفسنا
بدلاً من أن نتسلى بالشطرنج والمطالعة

والنزهات واختراع طرق جديدة للتقبيل
أما نحن فلا نستطيع أن نقدم لهم الحب
لأننا نريد أن نعيش:

٤-الآنسة "س":

أنا صديق الآنسة "س"
ذات الشعر الخرنوبي الخفيف
"س" التي يركض في شعرها حصان هائج
وساقية أنين
تبيع (الشيكلس) في المحطات حتى الغروب
وتعود إلى بيتها بصدر معبأ بالليل والنجوم
والأحلام اليابسة وقصاصات الجرائد
و"س" التي اكتشفت قبل أيام أن فورستر
يفرم ألسنة الأطفال الأفريقيين
ويصدّرها معلبة إلى القارات الخمس-
نامت في فراشي البارحة
بعد أن نفضت عن شعرها الخرنوبي الخفيف
ست مدرعات محطمة
وحقلاً من الذرة الصفراء
"س" المملكة المفتوحة للجميع
بجسدها المتين وقلبها الطيب كالدراق -
سألتني مرة بخبث: ما الأرض؟
قلت: "الأرض جرح متوهج ودم غزير
وألم مرتبك"

وعندما كان العمال الموسميون
يبنون بأعضائهم شاليهات لبورجوازي المدن
سألتني مرة ثانية بخبث أشد وهي ترسم
بإصبعها الأنيق على الرمل تفاحة معطوبة:
ما الأرض؟
قلت: "الأرض سرير تنام فوقه امرأة ميتة
وبجانبها يبكي رجل بائس"
وفي اللحظة التالية
ومثل أي شيء آخر
تنشقت "س" الغبار الأسود الذي تفرزه
سيارات تملكها ثيران بقرون ذهبية،
وأضافت: إذن، ما الفرق بين
السرير والجرح!؟
(لقد دفعتُ ثمن السرير جرحاً
وثمن الجرح حاضراً قتيلاً
ولم أستطع أن أشتري لـ "س" زهرة
لوتس أو إسوارة بلاستيكية بعملة
عمري المحطم
فماذا يقول السيد كارتر الذي يتبرع كل يوم
بعشرة سنتمترات من دمه لأحد قرود
حديقة حيوانات تكساس؟
وأنا صديق الآنسة "سْ"
ذات الشعر الخرنوبي الخفيف
التي تتعفّن تحت لسانها ليمونة من الأسئلة

البسيطة والمخيفة

انتظرتها على السطح

فجاءت بقميص مطعون بالنجوم والأحلام اليابسة

وكان علي أن أقبلها

وأعتقد بأنني فعلت ذلك بشكل جيد.

خراب الدورة الدموية

استقلي باص جسده
أو انتظريه في المحطة التالية
فهو الآن متهم لأنه قتيل
ومتهم بتخريب الدورة الدموية:
القبلة الأولى رصاصة
الطلقة الأخيرة حب.

١- صورة شخصية لـ : ر. ص. ح:

يركض في عينيه كوكب مذبوح
وسماء منكسرة
يركض في عينيه بحر من النيون
ومحيط من العتمة الطبقية
في عينيه - أيضاً -
تركض صبية جميلة بقدمين حافيتين
يغني: لقد كانت طرية.. طرية
كالثلج والينابيع
لقد كانت سنبلة طرية
ولذلك التقطتها بمناقيرها العصافير
لقد كانت طرية.. طرية
تركض بقدمين حافيتين فوق سهل أجرد.

٢- حلم:

من يقطن في جسد "ياناڤالينتوفا"
الطافح بالغزلان وأشجار البلوط
المعبأ بالمعجزات الأرضية المشاعة؟..
من يغتسل في محيط عينيها
ويتبلل بالنوارس وأصابع الصيادين السعداء
من يغتسل في محيط عينيها
ويتبلل بالنوارس وأصابع الصيادين السعداء؟..
ها أنذا أتفقد مكتبة أيامي
فاتحاً كراسة الأنهار،
لأقرأ في خطوط يديها:
تضاريس الريح
وأمجاد الأمواج البرية
أتفتت في مناخ قبلاتها:
أسماء خضراء وغابات سالكة
ممالك تفتح أبوابها لفرسان الدهشة
لعصافير الدوري المتفجرة بالغبطة والأناشيد.

٣- عشب:

جلس العاشقان على العشب
جلس العاشقان
خلفهما جثة لا تحد
وبينهما جثة ودخان

٤- أغنية:

مزرعة للوفى، يدك التي تمتد لا ترجعيها
شفتي لغة ملطخة بالضنى..
الآن تتمدد على سرير جسدك الوثير
ترتمي بين أشجار عينيك ذاكرتي
وأنا متشبث بضفائر يديك
أفتح نافذة للحديث..
وبلحظة يقتنصك الغياب
أو تصبحين فريسة للأغاني!.

٥- أسئلة:

أيتها البلاد المصفحة بالقمر والرغبة والأشجار،
أما آن لك أن تجيئي؟!
أيتها البلاد المعبأة بالدمار والعملات الصعبة
الممتلئة بالجثث والشحاذين،
أما آن لك أن ترحلي؟!

٦- مدينة:

يركض في دهاليزها فرس شوكي
يحكُّ بقوائمه ظهرها الطافح ببثور الجرب
هي.. هي
المدينة/ المئذنة
ثمة طاووس وحيد في حديقتها الواسعة

يفرد بزهو ذنبه الملون، لينظر إليه:

أ. ماسح أحذية ذو عينين حزينتين
ووجه ملطخ بالبويا

ب. أمرأة شقراء عيناها جرح ووجهها كآبة

ج. بائع بطاقات يانصيب خاسرة سلفاً

د. كاتب هذه القصيدة المطرود من عمله لأنه
حاول التأكيد على أن الأرض توقفت عن
الدوران، وأن الأبيض لم يزل أبيض
والأسود لم يزل....

٧- حوار:

قلتُ: للبحر أجنحة
ومراكبنا الريحُ قد سرقتها
وتناثر شاطئ البكارة في حقائب قراصنة
البر
فإلى أين أذهب
وأنا متسخ وعارٍ
مثلما القمر في منتصف ليلة صيفية؟
قلتِ: اغتسل بماء صوتي
وارتدِ قبلاتي
قلتُ: قاطرة الوقت قد أنهكتني
فالقرى مدية تحتز وريدي
والمدن الصخرية امتلأت بي ضجراً
وها أنا أتيبس بين اثنتين:

- خطوة وسكاكين..

- خطوة وقرنفل..

أصبح الصوت سوطاً

والحذاء قبعة

والحدائق مستشفيات

ومكاتيب الغرام قنابل موقوتة..

فمن أين أبدأ؟

قلتِ: فلتكن في البداية مذبحة الأبجدية!..

٨- رقص:

أسقط في حضن حبيبتي

شمساً باردة

هواءً مختنقاً

أسقط في حضن حبيبتي

جسداً مسكوناً بالجوع

مصفداً بالحبر والأحذية

أفتش في حضن حبيبتي

عن أغنية شرسة

ولحن مفترس

و...

- هل تحبين الرقص يا حبيبتي؟!....

٩- امتلاك:

حادة كالشفرة

صلبة كحربة فولاذية تخترق القلب

واسعة كالمحيط

جميلة كالفرح

مضيئة كالضحكة

حبيبتي الممتلئة بالأعياد

شهية كرغيف الخبز

طيبة كبرتقالة

أما أنا..

فلا أملك إلا هذه الكلمات

وبعض الذكريات التعيسة

المحفورة بضراوة على ميناء جسدي.

مارسيليز العصر النيتروني

في عصر الحب البلاستيكي والقلوب البلاستيكية
ثمة قطارات تذهب بالجنود إلى الموت في الأعياد
وثمة مهرجون يبكون على أنفسهم سراً
ويُضحكون الآخرين على الحلبة
في عصر المدافئ الغازية والاختناق بالغاز
أشمُّ أصابع حبيبتي
وأشرب ذكرياتها البليدة
هذه الفتاة تثرثر كثيراً عن الحقول
وتجمع صور الأطفال
كهاوية طوابع محترفة
حتى أنها لا تستطيع أن تقتنع
بأن الأمهات سيكففن عن الإنجاب
لأننا نعيش في العصر النيتروني
***

إننا نعيش في العصر النيتروني
عصر القبلات السريعة في الشوارع
والاندحار الفادح في الشوارع أيضاً
إننا نعيش عصرنا الضاري

عصر الجواسيس الذين يقدمون لك القهوة

مع المورفين

عصر الطائرات التي تطعم البشر القنابل

والألعاب

إنه عصرنا النيتروني

عصر الأحذية المثقوبة والكلابات

عصر التعب البطيء

من الساعة (صفر) حتى الساعة الخامسة والعشرين

ومن عصرنا النيتروني

عصرنا ما قبل الأخير

ندعوكم: تعالوا..

أيها البورجوازيون التعساء

تعالوا وشاركونا النحيب والسجون والأغاني

***

وهنالك قيد واحد وهناك أغان تتريّة

وهنالك أسرّة بعدد العشاق

وتوابيت بعدد اللصوص

وهنا.. هنا

رجل معتم وامرأة معتمة وسبعة عيدان من الكبريت

عود كبريت واحد يكفي:

لإضاءة شمعة

أم لتفجير مدينة؟

عود كبريت واحد يكفي:

لتحضير كأسين من الشاي

أم لتحضير محرقة للملحدين؟

عود كبريت واحد يكفي:

لتنظيف الأسنان

أم لإخفاء معالم جثة مغتصبة؟

وهنا.. هنا

حتى الموتى يمكن أن يتألموا

وحتى الموتى يمكن أن يتقنوا الرقص

وحتى الموتى يمكن أن يتلوثوا

إننا ملوثون للغاية

ملوثون بالحروب وملوثون بالمجاعات

نحن الموتى الموسميون:

شراييننا محقونة بالضجيج ومقابرنا

محقونة بالدخان

نحن العشاق الموسميون:

قلوبنا ملطخة بالأرق ولياليتا ملطخة بالآهات

نحن العمال الموسميون:

مرهقون دائماً وليس أبداً

مرهقون منذ الاهرامات وحتى جوهرة

بوكاسا الفريدة

***

في عصر الرؤوس المفلطحة

ومصانع الحب التكنيكي

وأرغفة الجوع الفاتك

في زمننا الحقيقي الأسطوري هذا

نخرج إليكم.. نخرج إليكم

لا من القبور ولا من المحيطات

لا من الكتب ولا من الجدران

نخرج إليكم.. نخرج إليكم

وبأيدينا كل شيء..

بأيدينا القمصان الملطخة بالزيوت والطين

بأيدينا مساحيق ال-: د. د. ت

شفرات الناسيت الحادة

انتظارنا العادل ودساتيركم البارعة

نخرج إليكم.. نخرج إليكم

لسنا أشراراً ولا مهذبين

لا نحب العنف ولا نكره الطيور

وأجسادنا تفوح دائماً برائحة المعادن واليانسون

نخرج إليكم.. نخرج إليكم

بشرفاتنا وأيامنا التي تتساقط كالذباب

بزمننا المعطوب

ببيوتنا المعطوبة

بأجسادنا المعطوبة

بأحلامنا المعطوبة وفاكهتنا المعطوبة

نخرج إليكم.. نخرج إليكم

نحن مواطنو العصر النيتروني

عصر الرؤوس المزروعة بالألغام

والقلوب الطافحة بالأغاني

***

إنه عصرنا النيتروني

عصر المساطر والمراثي والدبابات

إنه عصرنا النيتروني

عصر الشجر النووي والعصافير النازية

والإذاعات وعصر المواعيد الفتية:

مع المدافن نهار السبت

مع الحزن نهار الأحد

مع الخنازير نهار الإثنين

مع الجنون نهار الثلاثاء

مع الرشيشات نهار الأربعاء

ومع الموت الوسيم

إنه عصر المواعيد الفتية الخائفة في جميع الليالي

وفي جميع الليالي

في جميع الليالي

لكِ موعد مع قلبي

عيد للقبلة.. أعياد للقتل

- منذ سنة صدمتُ امرأة وحيدة في الشارع

تلبس بذلة باهتة ولكن عينيها لامعتان

صرنا أصدقاء بسرعة

وبعد أيام تبادلنا القبلات والأحلام

وكان اسمها: س

-١

كان اسمها: س

تحب الماء

والرحيل في زورق إلى المدن الجميلة

شعرها يتطاير في الريح كالعصافير الخائفة

ويداها زهرتان حول عنقي

وكانت تحب غرفة صغيرة في قطار

وكتاباً لرامبو تخبئه بين ملابسها الداخلية

في حقيبة سوداء تحت السرير

وكانت، أيضاً، تحب الأعياد والأطفال

وتكره الجواسيس والقتلة القانونيين

كان اسمها: س

ضفيرتان من أوراق البرتقال والملمس الناعم

تحب الرمل والقبلة

وتحبني أيضاً:

"حينما كنت صغيراً كغرسة الحمص وأليفاً كالهرة

سألتني سيارة هرمة

بعد أن لطخت وجهي بالطين:

بماذا ستغتسل في المستقبل؟

آنئذ، فتحت الباب ودخلت: س"

-٢

فتحتُ لها الباب وهي خائفة

جلستْ على السرير بانفعال

نظرت إلى زوايا غرفتي كلصّة وتنهدت

- علينا أن نأكل كثيراً يا صديقي ونموت

فما عاد في الأرض متسع للحياة لنا

قرأت لها قصيدة فبكت

حدثتها عن العمل

وحدثتني عن الأقفاص النظيفة

- حبة برتقال واحدة

وسبعة عشر ألف متسوّل

ماذا يعني؟

خلعت قميصها واغتسلت وجلست على السرير

نظرت من النافذة الضيقة وتنهدت

- غداً من الممكن أن أنتحر

الآن علينا أن نحب.

وضعت على عينيها منديلها الملون ونامت
أما أنا..
فلقد نظرت إلى صدرها المتدفق بإمعان
ورقصت بلا رغبة:
"في التاسعة عشرة وضعت على رأسي قبعة
وحملت كلاشينكوف
أكلت السردين كثيراً والغبار
وكنت كلما جرّدت مَنْ يقتله الأعداء مِنْ
أشيائه القليلة
أجد بينها صورة فوتوغرافية لـ: س"
-٢
على الرصيف تقابلنا
كانت تمزق دفتر مذكراتها وتبكي
أمسكت يدها بعنف وسرت معها
وفي زاوية ما
في مقهى ما
في شارع ما
شربنا الشاي وتبادلنا القبلات
لكن جسدها النحيل ظل يرتعش بقوة
حتى خفتُ أن يتفتت
مثل كتلة من الطين لم تر الشمس
منذ ألف عام:

"من روزا لوكسمبورغ حتى فاطمة برناوي

كان جسد من أحبها معجوناً بالجراثيم
والقنابل الموقوتة
وكان قميص من أحبها مبللاً بالزهور
وأناشيد الرعاة.
من روزا لوكسمبورغ حتى فاطمة برناوي
كانت يداها تضيقان تضيقان
حتى تصبحان بحجم جثة
وعيناها تتسعان تتسعان
حتى تصبحان بحجم قبلة
وأما قلبها فبصخب كان يدق، وباستمرار أيضاً
تك. تك. تك:
نحن معاً في الطلقة
ونحن معاً في الأغاني
من روزا لوكسمبورغ حتى فاطمة برناوي
سأقوللك: حدثيني
عن الطفل الذي يرضع الحمى من ثدي الأرض
عن الدروب المقفلة
عن العيون المفتوحة على جهنم
وعن الأجساد المفتوحة على البحر
سأقول لك حدثيني.."
لقد قدمت نفسها للبحر
ببساطة وحب ولا مبالاة
قدمت نفسها للبحر
هل هذا شيء مثير للضجة؟

هل ستتحدث عنها النسوة تحت القناديل؟

هل سيحتفظ الرجل برسائلها في صندوق

بثلاثة أقفال

أم سيقدم للنار كلماتها المعذبة؟

الأمر الوحيد هو أنها قدمت نفسها للبحر

كما تقدم الأم حلمة ثديها لأول مرة

للوليد الجديد

والبحر الواسع، الصاخب، الممتلئ

تلقف جسدها بشفتيه الرقيقتين وسكت

أما هي..

فلقد ضمته إلى صدرها بقوة و.. عاشت

كانت امرأة وحيدة

بلا أساور أو بيت أو عشيق

ولذا قدمت نفسها للبحر

فهل هذا شيء مثير للاهتمام؟

"أصبحت في الثالثة والعشرين

رجل بوجنتين شاحبتين ومستاء للغاية

ودعت (س) بعد أن تركت على عنقها

دمعة حارة كالفلفل

وها أنذا أعمل لأشتري لها تفاحة ورغيفاً

ولكن ثمة من أخبرني

بأنني سأجد في التفاحة دودة

وفي الرغيف صرصاراً ميتاً

فإذا تركت الرغيف والتفاحة سأموت

وإذا أكلتها سأموت

وفي الحالتين سأخسر نفسي

في الحالتين سأخسر س".

٥-

ماذا نفعل

إذا كان ثمة عيد واحد للقبلة

وأعياد كثيرة للقتل

ماذا نفعل؟

رقصة تانغو تحت سقف ضيق

قلبي سائغ للقضم

ملجأ للأرانب الزرقاء

سمكة قرش بزعانف من صبار شرس

قلبي سائغ للقضم

ويتحرك ببطء على بلاطك الشوكي أيتها الأرض

أيتها الأرض الممتدة من الموت بجدارة

على نصال الخناجر

إلى الموت بجدارة أشد

بواسطة حبل يتدلى من شجرة زيتون مغبرة

أيتها الأرض المعبأة بالأخاديد

المطلية بالحصى والرصاص

المرتدية عباءة من جسور تصل دائماً:

بين القبور والموتى

بين الجرح الأبيض القانوني

والجرح الأسود الخارج على القانون

بين القفص الفضي الجميل

والقفص الذهبي الجميل أيضاً

أيتها الأرض المكفنة بالصور الملونة لتيمورلنك

وسالومي

مدي لي لسانك البارد لأعضّه بغيظ
مدي لي شفتيك المهترئتين
لأنثر فوقهما رماد جسدي
فمن الممكن جداً
أن تنفلق ذرة واحدة على الأقل
لتنسل منها زهرة بيضاء
مثلما انفلقت - بالأمس القريب - الخلية الأولى
ليخرج منها البشر مسلحين بالمدى
الحيوانات مسلحة بالأنياب
الجبال مسلحة بالبراكين
السماء مسلحة بالصواعق
وأنا مسلح بقلبي
قلبي السائغ للقضم
باستطاعة أية امرأة أن تمد يدها إلى صدري
وتسحب قلبي منه بمرونة
وهذا ما حدث تماماً:
ثمة امرأة وضعت قلبي
/قلبي السائغ للقضم/
في كأس صغير
وأضاف عليه قليلاً من الماء والسكر
وكان بودي أن أسألها بمرارة:
لماذا شربت قلبي على أنه عصير برتقال
ولم تأكليه على أنه برتقالة؟
ولكنها - على الأرجح -
كانت ترقص التانغو تحت سقف ضيق!

مساء هادئ فقط

هذا المساء هادئ أكثر مما ينبغي
هذا المساء ليس هادئاً
فأنا رجل أو حزمة ديناميت
وتحت إبطي إوزة حمراء أو خرتيت أسود
المرأة ذات النهد المعشب واليدين الصريعتين
نامت مع زوجها على السطح
إذن، هذا المساء هادئ
الفلاح الملتحي لم ينم هذا المساء
فلقد سرق دجاجة سمينة بالأمس
وضبطت المفرزة الجنائية عظامها في برميل الفضلات
إذن، هذا المساء ليس هادئاً
فريتا الجريحة ماتت في الغابة
وغطّتها الأغصان الكثيفة والمستنقعات
إذاعة (مونت كارلو) لم تذكر شيئاً عن ريتا/
سيداتي، سادتي:
قتلت القطة لوسي تحت عجلات القطار
ولم يستطع المستر (x) أن يمارس واجباته
الزوجية بعناية/
المساء هادئ جداً

على ضفة الميسيسبي إحدى العاهرات

تغزل الصوف وتحيك الجوارب لقتلى حروب العدالة

الشعراء يتحدثون عن الشعر...

العمال يتحدثون عن العمل

العشاق يتحدثون عن الحب

الفلاحون يتحدثون عن الأبقار

ولكن قل لي أيها القارئ الوسخ

عمَّ يتحدث الموتى

في هذا المساء الهادئ؟

إنهم بالطبع لا يتحدثون عن لعبة الهوكي

أو الأمجاد التي حصلت عليها أميرة موناكو-

لأنها عرضت ملابسها الداخلية أمام جمهرة من اللصوص

إنهم يتحدثون عن الموت

هل الموت قالب كاتوه أم نسناس دانمركي؟

أهو تفاحة أم بلياتشو بأنف يشبه التفاحة؟

هل الموت حلم أم حقيقة

وإذا كان حقيقة

فلِمَ لَمْ يزل هتلر يفكر بحشر الضعفاء

في أنابيب الغاز؟

ولِمَ لَمْ يزل هولاكو يغتال الفلاحات

في حقول القطن؟

في هذا المساء الهادئ

ثمة شخص يرثي للجميع:

لقطاع الطرق وأسراب النوارس المهاجرة

للغيوم الكالحة والقتلة المهذبين

ومراسيم حصر الجنسية

للعشاق الفاشلين وكلاب المدن الضالة

وفي هذا المساء الهادئ

سأغلق باب غرفتي ورائي متجهاً نحو النهر

عليَّ أن أتوقع قبلة على الخد

أو خنجراً في العنق

ومن الممكن أن ينتظرني قمر أو قنبلة

زهرة بنفسج أو قبر

عليَّ أن أتوقع كل شيء

فالمساء هادئ

المساء ليس هادئاً!

خنجر أبيض

في الصيف
كان ثمة صبية شقية بعينين صاخبتين
التقت بي في قطار التاريخ
وأعطتني كتاباً وإصبعاً من الموز
بعد أن نظرتْ بخوف إلى الرجل الضخم
وهو يداعب فوهة مسدسه البارد في
جيب سترته
وحينما طلبت منها أن تعطيني عنوانها
قالت: لا بأس
ومصّت إبهامها اللذيذ وفكّرت
ثمّ كتبت شيئاً ما على ورقة صغيرة
في الشتاء
حينما ذهبتُ إلى المقهى لأراها
كان وجهها أصفر وعيناها رماديتين
وفي ظهرها خنجر أبيض
تتراكض عليه العصافير!

النهر

ونحن أيضاً - عرّفته بنفسي -
نسفّ حبوب العدس في الليالي المقمرة
منتظرين أن تشقّ الشمس شارعاً
في قلوبنا الطرية
ونحن أيضاً - عرضتُ عليه صورة لغجرية
وجهها زلزال -
نحب الجسد التفاحي
والنار الزرقاء
والأسرّة الصاحية
وفي الصباح ننحدر نحو الجدول
لنغسل أصابعنا من الدبق
وقلوبنا من المسرّات
ونحن أيضاً
- أردت أن أجدد كآبتي أمامه -
نبكي على نوافذ تعاستنا
منتظرين أن يأتي نهر الحرية
لنشرب منه إلى الأبد.

يحدث أن..

يحدث أن ترى بعض الأطفال يلعبون بالكرة

وهم يتحدثون عن الأسعار المرتفعة

للبيبسي كولا والبسكويت

يحدث أن تسمع بأن رجلاً في صحراء الربع الخالي

يتكلم كثيراً عن البنكنوت والمراوح الكهربائية

يريد أن يبتلع بيضة الثورة

كما تبتلع الرتيلاء ذكرها المسكين

يحدث أن تقرأ عن امرأة أمريكية

وهبت بكارتها لسبعة آلاف رجل

ومع ذلك مازالت تنام وهي بردانة

كالقطة في حجرة من الفخار

يحدث أن تحس وأنت في هذه الغرفة

بأن فاكهة الدنيا كلها

لن تستطيع أن تمنحك القدرة على الاكتفاء

ولكن الشيء الذي لم تره

أو تسمع عنه.. أو تقرأه.. أو تحسه

هو أن ضوء القمر اللطيف

قد يأتي إليك أحياناً

وجيوبه محشوّة بالديناميت والقنابل اليدوية.

العدالة

العدالة هي أن أركض مع حبيبتي
في أزقّة العالم
دون أن يسألني الحراس عن رقم هاتفي
أو هويتي الضائعة
العدالة هي أن ألقي بنفسي في البحر الشاسع
وأنا واثق بأن أحداً لن يمسكني من أذني
ويقودني - مرة ثانية إلى القبر
بدعوى أن الانتحار لا تقرّه الشرائع
والقوانين
العدالة هي أن آكل رغيفي بهدوء
أن أذهب إلى السينما بهدوء
أن أغني بهدوء
أن أقبّل حبيبتي بهدوء وأموت بلا ضجة.

أسـاطير

١- نهر. نهر. نهر:

أكسّر بالحصى مصابيح عينيك

وأفترش صخرة العتمة

أحلم أن يدي نهاران

ورأسي شجرة ليمون

وجسدي مزرعة للعدس

نهر. نهر. نهر

نهر من القرنفل والعشاق والعصافير الشاردة

/وصديقتي لؤلؤة قمحية مخبأة في تابوت/

نهر. نهر. نهر

نهر من الرماد والقتلى والمدن المهزومة

/وصديقتي تضع جبينها على الوسادة وتبكي/

نهر. نهر. نهر

نهر من الغضب اليابس والقبضات الصدئة

/وصديقتي تفرّ إليّ سرباً من الذعر

وتختلط بي/.

٢- النافذة والرصيف:

تدخل الشمس من النافذة كملكة

من النافذة يدخل الغبار كعنكبوت

حبيبتي تطل من النافذة

ومن النافذة أرقب شلالات النجوم

من النافذة تترجل رصاصة بمهابة

وتخترق جسدي بكبرياء

أتدلى من النافذة بعينين عشبيتين

وأقفز بارتياع في بحر الأرصفة.

٣- زهرة برية لعيني نيرون:

أنا المقيد المنتشر

أسطحة ذاكرتي تراب

أحمل لحبيبتي أقراط اللوز وأساور العنب الأسود

زهرة برية لعيني نيرون

سيد الخراب والقصور الجائعة

ومثلما الأفراح النارية تختلج على قيثارته اليتيمة؛

أختلج على أوتار حبي

مشنوقاً بأوراق الزيزفون وغبار المدينة المتهدمة

افتحي لي بوابة النهر لأغتسل

اغلقي خلفي نافذة اليباب لأنام

امتلكي دهشتي وخطاي

قبل أن أصبح دمية محطمة

ادخلي فضاء قلبي

كوكباً مائياً صغيراً

ومزقي رئتي بالقبلات

فأنا المنفتح شراعاً فوق مركبة الخذلان
أحمل لنيرون زهرة برية بيدي اليمنى
وباليسرى أقبض على جمجمة البحر المتفتتة
ومن شفتي تسيل ملكة الحزن والانكسار
وأمام مذبح الوقت
أعرّي أجيالي بغبطة
أغسلها بلفائف التبغ ومقصلة الكلمات
ليغتصبها هيكلي الجوعيّ قطعة قطعة.

٤- كان وقتاً جميلاً:

لم يكن وجهها بيدراً
حين بعثرني الوقت
قلت لها: أنت لي..
وأخذت رمادي من الشرق والغرب
من جهة صلبتني
ومن جهة أمسكتْ خطوتي قبل أن ألمس النهر
أعطيتها جسدي وبطاقة حب ملونة
وبكيت قليلاً على صدرها الشجري
رحلتُ. وقفتُ:
ليس لي غير صوتي ونافذة وتراب
ليس لي غير هذا الغبار الصغير
سيخنقني جسدي
الآن تأتين أيتها مقصلةً ويبابْ
اقرع الكأسَ بالكأسِ

موعدنا جثتان
اقرع اليأس باليأس
مدّدني جبلاً في الطريق
فشاحنة أينعت في فمي:
وردة ومصابيح ذئبية
وجزيرة موت
ولا أنتهي..
كان وقتاً جميلاً جميلاً
ضفة ورمال، ومشنقة تتدلّى
وشاخصة: (سيدي)، لن تعيش
كانت الأرض عرساً بسيطاً
وها جثتي في يدي كحبة توتْ
وبحارة ينشدون:
لقد كنت قنبلة يا حبيبي
تفجرني، وتموتْ.

٥- لوسيفورس يقشر برتقالة البحر:

أصعد النافذة المفتوحة على ثديي قروية ترضع
الأرض
شفتاي مكبلتان بالسخام وتعب الصحراء
أصعد، حاملاً المدينة تحت إبطي
بيوتاً ملطخة بالقهر والابتسامات الباردة
أرى:
لوسيفورس يقشر برتقالة البحر

أنتحب بين يديه
لوسيفورس، أعطني سكينك وخذ جسدي
- لوسيفورس، أعطني قدميك وخذ ذاكرتي
الطافحة بالأسماك الجميلة الميتة
- لوسيفورس، اهدني مسدساً أثقب به
جمجمة الليل أو اهدني موتاً حقيقياً..
فلمّا أزل موغلاً في نفق البكاء،
أترك أثراً / زنبقة في صدر امرأة، وأموت.
ولمّا أزل أستلقي على أرصفة الدنيا،
أحلم كخروف بالحشائش والتبغ والجدران الخمسة
وفي الصباح أترك أثراً / بقعة دم متجمدة،
وأموت.
الرسائل أيضاً..
أدس فيها زهور اللوتس وجوعي
وأوزعها على بريد العالم
فيرسلون لي في طرد مضمون قنبلة ناعمة
تنسفني، وأموت.
لوسيفورس..
هل رأيت الشمس وهي تتدلى من حبل مشنقة؟
لقد كانت أمي تحبها كثيراً
وتطرز لها في الشتاء قميصاً من خيوط شجرة عينيها
هل تعرف أين تختبئ الأقمار القديمة؟
مرة فتحت تلميذة صندوقها الخشبي الصغير
الذي تضع فيه كتبها المصوّرة
وكنت أختلس النظر كقط ذكي

فرأيتها:
عشرة أقمار..
عشرة أقمار صغيرة لامعة
***
صورة: - لوسيفورس يأكل برتقالة البحر
صوت: - لوسفيورس، أطعمني، فأنا جائع.

٦- المهدورة:

تنبئني امرأة كبريتية
فمها وكر للخفافيش والأسلاك الشائكة:
- زمنك المتقدم على قدمين من زجاج،
سينكسر قبل أن يصلك.
تنبئني امرأة طائشة:
- زمنك المنكسر يأتي إليك بلا أيام
محمّلاً بالتوابيت وبطاقات التعزية.
تنبئني امرأة تدخن الماريجوانا
في مقهى البحر المتوسط:
- زمنكالميت، مكتئباً يسير في أزقة المدينة
يسأل عنك الأرصفة الرطبة
ويفتش في جيوب الشحاذين عن عنوانك المحترق.
ينبئني زمني:
- امرأة تخبئ في عينيها كل الأفراح
المهدورة والأعراس الممزقة..
قادمة من بين يديك،
فاستقبلها.

....

مطر أشقر وفرس زرقاء

وجثتي في الشارع وحيدة

وما زلت أكتب العصافير على ورق الجدران

وأرسم تفاصيل حبيبتي الكئيبة

مدن من زهر النعناع

وقرى من نفايات المدينة

جثتي في الشارع وحيدة

وأنا أصرخ في بوق الريح:

أيها الزمن السيئ. أيها الزمن اللعين

يا رغيفاً من حشرجات ووطاويط

ألم تر حبيبتي الكئيبة

سمراء. قمحية. مدمرة. بحر

ملفوفة بالأعشاب والغيوم الكتيمة

عيناها سمكتان ونهدها غزالة

وسلّم سرتها طويل

درجة أولى وساعتي رطبة

ماذا تطلب أنت؟

- زجاجة بيرة وصحناً من الأحزان المقلية

قصائد مملحة بجوع الفقراء

وأشجاراً مبادة بالأسلحة الكيماوية.

تعلّم، إذن، كيف تحب العالم

تعلّم كيف تبتلعه.

درجة ثانية وسلم سرّتها طويل

لا تصعد هذا الوجع

قد تطلع من الحائط نسمة بحجم جبل

قد يخرج خرتيت من بطن خزانة محشوة

بالثياب الفرنسية موديل /٢٠٠٠/

وربما يطل برأسه ديناصور رهيب

من كتاب يتحدث عن الحب والأزهار

اقرأ كتاب النار ولا تشتعل

دخّن لفائف قهرك الرخيصة

فالدرجة الأخيرة آتية

وسلّم سرتها طويل

ضمد جراحك بالأرصفة ورسائل المساجين

فمعدن حبيبتك مزور

وأنت لم تتعلم فن الضحك في مدرسة

دريد لحام

ولم يعلمك أوفيد فن الحب

إنسان بسيط أنت

تريد أن تأكل وتتزوج وترقص.

***

جسد حبيبتك شمس

إذا اقتربت منها ستحترق

كفّا حبيبتك مدينتان

إذا دخلتهما ستصاب بالانفصام

شفتا حبيبتك رغيفان

إذا أكلتهما ستصاب بالتخمة

***

مطر أشقر وعيون زرقاء

وأنت ممددة على معطفي الممزق

المدينة نائمة ونحن وحيدان

وسندريلا في ردائها الطويل تطاردها المذبحة.

أنا جائع جائع

كعصفور على صخرة نائية في بحر متسع

ولكني لا أريد أن أموت

انا مقهور مقهور

كورقة صفراء لم تأخذها الريح في الخريف

ولكني لا أريد أن أسقط في الفراغ

أنا معذب معذب

مثل ديك بعنق مقطوع يركض في أزقة

خاوية ودمه لا يتساقط منه

أنت جميلة والمطر أشقر ونحن وحيدان

ولكن لا أريد لموتي أن يتسع

***

أيتها الرائعة الخاوية حتى من جسدي
أيتها البلاد المثقوبة كالخرز أو كالجراح
ها أنذا أعطيك نهراً قبل أن أغتسل
فيه.

أساطير يومية

"لقد قلت لك، أيها الرئيس، إن كل ما يجري فوق هذه الأرض، غير عادل، غير عادل، غير عادل!.. وأنا دودة الأرض، زوربا الحلزون، لا أوافق على ذلك".

نيكوس كازانتزاكي
زوربا

حرب. حرب. حرب

عاشق ذاهب بين حشرجة النازحين وحشرجة الكلمات

عاشق مثل هذي البراري المدماة والجثث الذهبية

يخرج من زمن ليغني

ويدخل في وطن ليغني

يبتاع أرغفة ومعاول

يبتاع أرصفة ومعامل

يبتاع حزناً شديداً

ودبابة سقطت بين فكي زهرة دفلى

يبتاع قبراً وسيماً لطائرة

وغصوناً خضراء من فرح أبدي للعاشقات

عاشق ذاهب بين حشرجة النازحين وحشرجة الطلقات

عاشق قال:

هذه هي الحرب

تخلع قمصانها الخشبية

تكشف عن عريها الحشري:

دماء وأرصفة

ودفاتر مبتلة بالنشيج ·

دماء وعاشقة ودفاتر مبتلة بالدماء

دماء وأرغفة

وأساور ضيقة

ومآذن واسعة

وطيور تهاجر

مجزرة وشعوب

مجزرة وزهور

هذي هي الحرب تفتح نافذة الحب للقاتلين

وللعاشقين ستفتح نافذة للقبور

***

في الحروب التي ذهبت

في الحروب التي بقيت

في الحروب التي حاولت أن تجيء

كان وجه أليف لعاشقة يتمرغ في الرمل

والألم الطبقي

كانت العاشقات الوسيمات يخرجن للشرفات

ويعرضن أجسادهن المدماة لله

والله كان يجيء القرى وبصحبته الجند

كان يعبئ مئزره الملكي حروباً وينثرها في البيادر

كانت بيادر من فضة ومواعيد

كانت بيادر من فضة

ثم كانت حروب

وهل تذهبين إلى البيت

أم تذهبين إلى الموت

هل تذهبين إلى العشب

أم تذهبين إلى الحرب

كنا نسير نسير وتثقبنا الطلقات

وكنا نسير نسير بدائرة قطرها ألف حزن

يداً بيد ونغني

يداً بيد ونموت

ويا أيها لا تأت في الصيف

إن الطيور تشاطرنا الصيف

يا أيها الموت لا تأت في مطر خائف وبعيد

لا تأت

فالأرض عطشانة

والمواسم مكسورة

والشعير سينضب

والعاشقات سيبكين عشاقهن

ولا تأت.. لا تأت

لكنه الموت يأتي

ولكنها الحرب تأتي بهيئتها الحشرية

تدخل من ثقب باب

ومن ثقب نافذة

تتناسل في حانة - صحف - كتب

تتناسل في جثث العاشقات

ثم تنده للقاتلين: "استريحوا.. استريحوا"

وتطعمنا البؤس والطلقات

***

عاشق قال:

بعد نهارين من تعب ورصاص

تجيء من الأرض عاشقة

وتمد يديها إلى مطر وإجاص

تمد يديها إلى الماء

تغسل ألسنة الخطباء وألسنة الرقباء

تسجل أرصدة الفقراء التي ابتلعتها الحروب

على دفتر شجري

تمزق قبعة الجنرال

وقبل مسائين من مطر وإجاص أرى:

تحت قبعة الجنرال قرى مصمصت عظم أطفالها

ويدين تقطعتا

وأرى تحت قبعة الجنرال:

دماً ساطعاً

وجماجمَ مكسورةً تتهجى حروف البلاد

وفي كل حرف مشاريع من حلم فاسد

وأرى تحت قبعة الجنرالات

مشروع حرب على الزهر

مشروع حرب على النهر

مشروع حرب على الفقراء

وبين يدين تقطعتا

يهرب العاشقون من العشق

والميتون من الموت

والفقراء من الفقر

من ثم تسقط قنبلة ويجيء الغزاة الأشداء

من كأس شاي وسيجارة وصباح

ومن كأس شاي وسيجارة تبدأ الثورة العالمية

أو تبدأ الأمنيات الكثيرات

يبدأ الخطباء خطاباتهم

والجنود رصاصاتهم

ثم أفرغ من الحزن

أقذفه تحت قبعة الجنرال

وأركض في مقتل لا يحدّ

/أنا الآن مقتنع ببلادي

ومقتنع باضطهادي/

وفي زمن لا يحدّ أرى من أحب على شاطئ

تستريح من اليأس

تسألني عن مكان لذيذ بلا شرطة

نتبادل فيه الأناشيد والقبلات

أجيب: هو البحر

قالت هو البحر. قالت هو البحر

وابتسمت.

بعد ثلاثة أيام

ما الذي سيحدث في هذا الضياء الواسع

إذا لم تشرق الشمس

لمدة ثلاثة أيام؟

ما الذي سيحدث في هذا الفضاء الواسع

إذا توقفت العصافير عن الزقزقة

لمدة ثلاثة ايام؟

ما الذي سيحدث في هذا الجحيم الواسع

إذا تعطلت أجهزة اللاسلكي

لمدة ثلاثة أيام؟

ما الذي سيحدث في هذا المستنقع الواسع

إذا توقفت الضفادع عن النقيق

لمدة ثلاثة ايام؟

ما الذي سيحدث في هذا القبر الواسع

إذا فقدت السجائر من الأسواق

لمدة ثلاثة ايام؟

ما الذي سيحدث في هذا الخنجر الواسع

إذا توقفت أمريكا عن أكل لحوم البشر

لمدة ثلاثة أيام؟

ما الذي سيحدث في هذا العالم الواسع

إذا أضربنا عن اليأس

لمدة ثلاثة أيام؟

وما الذي سيحدث في قلبي الواسع

إذا لم أحبك

بعد ثلاثة أيام؟

***

منذ القبلة الأولى على رقبتك الطويلة

وحتى الحرب العالمية الثالثة

التي لم تأت بعد

كنت أوزع الحب على النازحين

وهم يوزعون بطاقات الإعاشة

كنت أوزع الحب على السجناء

وهم يوزعون الصدمات الكهربائية

كنت أوزع المصانع في الصحارى

وهم يرصدون سجناً لكل مصنع

منذ انبثاق النار من احتكاك حجرين

وحتى اختراع القنابل العنقودية

كنت أوزع الحب في القلوب

كما يوزعون الرصاص

كنت أنثر الأغاني في الطرق الجبلية

كما ينثرون الألغام

منذ أن جلس بوكاسا على عرشه العريض
وأنا أحاول أن أحبه
بعد ثلاثة أيام.
***

بعد ثلاثة أيام
ستقابل عاملة في مصنع للنسيج
رجلاً يصنع التوابيت
بعد ثلاثة أيام
ستقابل العاملة رجلاً
هي لا تحمل حقيبة
وهو لا يضع ربطة عنق حمراء
بعد ثلاثة أيام
ستحدث مهزلة بسيطة
- رغم أن كلاً منهما لا يملك أجرة تكسي -
عندما تقول له:
لا أستطيع أن أحبك
إلا بعد ثلاثة أيام
***

راعي بقر مكسيكيٌّ
يمتطي دبابة سمينة
أسنانه في نهد خط الاستواء
وأصابعه تلعب البوكر في داريا

جزمته في طهران

ودماغه في واشنطن

راعي بقر مكسيكيٌّ

أطلق قذيفة واحدة

فأصاب ثلاث عائلات

الأولى: لم تسمع بالأمم المتحدة

الثانية: لم تسمع بالأمم المتحدة

الثالثة: لم تسمع بالأمم المتحدة

راعي بقر مكسيكي

أطلق قذيفة واحدة

فثقب قلبي من ست جهات

شحذت سكيني ببرود

أيها الراعي.. أيها الراعي

تعال لأحبك

***

بعد ثلاث قبلات

بعد ثلاث قذائف

بعد ثلاثة أرغفة

بعد ثلاث مجاعات

بعد ثلاث حروب

بعد ثلاث جرائم

بعد ثلاث مصفحات

بعد ثلاث مراوح كهربائية

بعد ثلاث جثث

بعد ثلاثة أرانب

بعد ٢٤ سنة من التعب البارد

من يستطيع أن يحبني

بعد ثلاثة أيام؟

نيكاراغوا. نيكاراغوا

دم أبيض وأزهار سوداء

نوافذ تطل على البحر

ونوافذ تطل على المقابر

فتاة جائعة تمشط شعرها بإتقان

مياه صلدة

أغانٍ بليدة تتحدث عن الحب والفراق

عجوز ممزقة ونشيج مكتوم

نيكاراغوا

***

مصانع لإنتاج الأدوية الغالية

وأخرى لإنتاج الأمراض الرخيصة

طائرات لنقل البشر إلى الحروب

وأخرى لنقل البشر إلى الغابات الجميلة

أراض لزراعة البرسيم والقمح والبترول

وأراض لزراعة الفيروسات والجماجم والتوابيت

نيكاراغوا

***

مدينة عذبة بشفتين ناريتين

شوارع عريضة للنمور والفئران والسجون

وشوارع ضيقة للأبقار والعصافير والحرية

نيكاراغوا

***

مكاتب لاستئجار وتأجير البيوت

مكاتب لاستئجار وتأجير المقاعد

مكاتب لاستئجار وتأجير الصحارى

مكاتب لاستئجار وتأجير الكتّاب

مكاتب لاستئجار وتأجير النجوم

مكاتب لاستئجار وتأجير الأسماء

مكاتب لاستئجار وتأجير الهواء

مكاتب لاستئجار وتأجير القمر

نيكاراغوا

***

نابليون يتبادل الأنخاب مع القيصر

بريتون يشتم سلفادور دالي

الليندي يتنازل عن السلطة للفاشيين

بردى يصب في الميسيسبي

شعراء يشتركون في سباق الخيل

وحدادون يكتبون الروايات الجميلة

نيكاراغوا

***

سندويش مهرّب عبر الحدود

ساحرات يقطنّ علب الكبريت

أرانب تتعلم ركوب الدراجات

نسانيس تشرب الكازوز في الشواطئ الزرقاء

جيوب محشوة بالمدرعات

ألسنة مطلية بالنيفيا

تحيات مثلجة

قبلات عوراء

سياط ملونة كالطواويس

وطواويس بلا ذيول معروضة في الحدائق العامة

نيكاراغوا

***

برادات لحفظ الجوع من الذوبان

طناجر بخارية لطبخ الألم والضياع

ستائر لطرد الشمس من البيوت

رصاص لطرد الثوار من الحياة

مختبرات لمعالجة الغازات المسيلة للأرواح

إذاعات لترويج العنف والمقانق والبضائع الكاسدة

وتلفزيونات لترويج الأكاذيب

ومتاحف لعرض الجثث وصور الأحياء

نيكاراغوا

***

كتب محكوم عليها بالإعدام

فراشات محكوم عليها بالأشغال الشاقة المؤبدة

مياه آسنة تسيل من سقف مثقوب

عاشق ينظر من الثقب ويغني لحبيبة بعيدة

حبيبة بعيدة معلقة من نهديها في الساحة العامة

فلقد حلمت مساء البارحة بصياح الديكة

نيكاراغوا

***

نون نائمة تحاول أن تستيقظ الآن

ياء يائسة عثرت على وردة في الطريق

كاف كئيبة يعزف تحت نافذتها رجل بالأكورديون

ألف آهلة بالرقص والثورات

راء رطبة تجفف جسدها من الفاشستيين

غين غريبة ضمتها ذراعان دافئتان

واوٌ واسعة تتسع للجميع

نيكاراغوا

***

امرأة مجنونة وشعر محلول

أغنية ساقطة تبحث عن ملحن

نيكاراغوا

***

منفضة سجائر بحجم نيكاراغوا

مجمرة طويلة ودخان كثيف

نيكاراغوا

***

أسلحة في الشوارع

أسلحة في الثلاجات

أسلحة أثرية معلقة على الجدران

أسلحة بيضاء مخبأة في الأحذية

أسلحة صغيرة تحت الوسائد

أسلحة كبيرة على الأسطحة

أسلحة في الأصابع

أسلحة في الأدمغة

أسلحة في القلوب

نيكاراغوا

***

أرغفة تصفع الناس في الصباحات الباردة

رجل يخلع جواربه ويقفز إلى السماء

امرأة تخلع عينيها وتطارد الغزلان

طفل يفجّر بالونه ويطالب بمسدس

نيكاراغوا

***

نيكاراغوا ورق أبيض وكتاب مفتوح

نيكاراغوا آتية

نيكاراغوا قريبة

نيكاراغوا على بعد ثلاثة أمتار من هذه القصيدة.

ذات يوم فوق سرير شاسع

للمرة الألف أرجوك لا تذهبي

للمرة الألف آخذك بيدي

وأركض في حقول الألغام

في حقول الدم

في حقول الحنطة

وأرجوك لا تذهبي

لا تذهبي وفي عينيك غزالة مذبوحة

لا تذهبي وتحت جلدك يصفّر الموتى بشفاههم المعطلة

لا تذهبي يا عزيزتي لا تذهبي

تعالي وقبليني قبل أن تذبح شفتيك المرتعشتين

سكاكينُهم الطويلة

تعالي لنثرثر بسهولة وألم

تعالي لنتحدث مثلاً:

عن الديدان التي تغزو السنابل

عن المعادن التي تقرقز أصابع العمال بطريقة عجيبة

حدثيني عن السهول ذات الخضرة الضارية

عن الوعول التي تقفز بسعادة بالغة

وهي تقضم عشب الفرح بحرية لا تشبه إلا قلبي

حين يخفق بأعلامه السوداء

فوق ثكنات المحاربين الذين يحلمون فقط

- بثلاثة أمتار من الراحة

- بدوش ماء بارد

- بامرأة تغني بصوت حزين

وطفلة تقول لكل رجل تصادفه: أريد بابا

حدثيني عن الدنيا وقاراتها الخمس

وحدثيني فيما بعد عن الزمن

وحدثيني عن العصور جميعاً

ابتداءاً من العصر الحجري القاتل

وانتهاءاً بعصرنا السفاح

حدثيني عن السفاحين المنتشرين في:

السفارات/ الأزقة/ دور السينما/ المطابخ/

علب الكبريت/ زجاجات مياه بقين/ أحذية باتا/

ولاعات رونسون/ شركة ميكروفيلم/ جوارب أوغاريت..

حدثيني لأحبك

حدثيني لأحبك

"أحبك"

هذا ما يقوله السندان للمطرقة

"أحبك"

لي نهار في المعصية

ولي أزهار في الطرقات

"أحبك"

هذا ما أقوله أنا

هذا ما يقوله الرجل الذي من خلفه النوافذ تهوي

ومن تحته الأرض تئن

"أحبك"

لي ثلوج في جميع المدافئ

ولي وحل في جميع الشتاءات

لي الحائط الكتيم

الأصفاد الثقيلة

الزمن البطيء

ولي الزهر الذي يتدفق من رئتيك

تنفسي يا حبيبتي تنفسي

فهو ذا الهواء ينبح في الأزقة بصوته البليد

هو ذا الدم يسيل فوق لحم الشرفات

وأنا ملتف بقلبي

وقلبي يقرع أجراس الأجساد الرثة

أيتها الأجساد الرثة المغسولة بالحب وعصير البرتقال

أيتها الأشجار الصاخبة

المغلفة بالأيقونات وصور القديسين

أيتها الأحجار/ المقابض/ الأسطحة/ الأحذية/

الأعلام/ القواميس/ الرجال/ النساء/ القطط/

الفؤوس/ الهراوات/ الشياطين/..

تعالوا واستمعوا إلى خرير الإرهاب في الشوارع

تعالوا إلي جميعاً

تعالوا إلي بدون استثناء

- أيتها المرأة تعالي لأضمك

- أيها الطفل تعال لأقص عليك حكاية الذئب والأرنب

- أيها العاري تعال لأكسوك بالقبلات

- أيتها الحقول الجافة تعالي لأهبك خضرة دمي

- أيتها الشمس لماذا ترتعشين من البرد

وحطب قلبي مهيأ للاشتعال؟

ويا أيتها الأسئلة

يا أيتها الأسئلة

تعالي لنكسر معاً زجاج النوافذ

التي تحجب عنا نضارة الصراخ

سأسأل الصبايا:

لماذا أنتن مكتئبات

وموسيقى ديميس روسوس معبأة في زجاجات الكازوز

سأسأل الجائعين:

لماذا لا تأكلون أطنان التفاح

التي يهدرها الإمبرياليون في البحر يومياً؟

سأسأل أشجار الزيتون في ضواحي دمشق:

من اختلس أوراقك في الليل

وجعل منها وسادة للسفاحين؟

سأسأل السفاحين عن الأشجار

الأشجار عن الشوارع

الشوارع عن الاضطهاد

الاضطهاد عن حبيبتي

وأقول لحبيبتي

أقول لحبيبتي التي تبيع الجانرك والمانجا في باب توما:

إنني مرهق كثعبان ابتلع بيضة

وأقول لحبيبتي

وأنا أصغي إلى زقزقة الموتى في التوابيت

إلى هديل الحرب في البلاد:

تعالي لنمشي ونتذكر كيف كان الملوك ينتحرون

لأن عينين حافيتين انطفأتا

لأن قلباً وسيماً أضاء

تعالي لنتفاءل بذات يوم فوق سرير شاسع

ذات يوم فوق سرير شاسع، حيث:

- العصافير تقصف الطائرات

- الشهداء يضعون القتلة على الكراسي الكهربائية

- الزهور تسنّ للرصاص شفرات المقاصل

والحرية

تغتصب

السجون

ذات يوم فوق سرير شاسع

أفتح ثغرة في لحمك الذي يحترق أيتها الأرض

وأقذف إليك بدماري.

أسـاطير يومية

"الفن هو فرح الإنسان في أن يكون ذاته،

بأن يحيا وينتمي إلى المجتمع".

- فاغنر -

الوقت/ القبلة

رأيت أن الأرض مثلث برمودا واسع

يبتلع الأطفال والشجر والفلاحين

ثم اكتشفت، فيما بعد، أن الأرض كروية

ففكرت بوجود بعض الأمكنة

لا يبتلع فيها الماء شيئاً

أمكنة صغيرة جداً.

على سبيل المثال:

ثمة رجل يقبل امرأة

دون أن ينظر إلى ساعته.

الولد/ الفتاة

"- إذا لم تحبني
أيها الولد اللطيف
سأردك إلى أمك.
- إذا لم تحبيني
أيتها الفتاة الشريرة
سأردك إلى القبر".
وأنا أتذكر أن بين شجرة الليمون والمستنقع
بين الهواء والضفائر الساطعة
بين الأسنان الجائعة واللحم
بين الموسيقى والغبار
بيني وبين أمي
بيني وبين قبري:
فتاة لطيفة
وولداً شريراً.

لماذا

لماذا نحب بعضنا بعضاً
مادام جيبي محشواً بالأجراس
وجيبك محشواً بالجثث؟
لماذا نقبل بعضنا بعضاً
مادام فمي رأس أوزة حمراء
وفمك عمود كهرباء متغضن؟
لماذا نرسل لبعضنا البعض الرسائل؟
مادمت تحاولين أن تعضّي الزمن
وأنا أحاول أن أقطع المسافات؟
وفيما بعد إذا تزوجنا
هل ستصرّين على سرير من خشب الزان
أم ستستلقين بكامل أناقتك على الرمل المبلل؟
لنبق بعيدين إذاً
يدك تتثاءب على الوسادة
ويدي ترعى قطعان الرصاص
وفيما بعد إذا التقينا في مقبرة واحدة
لن أنكر أبداً بأنني أحببتك

الشبه

يا امرأة من لحم وصنوبر وأحجار
إنك لا تشبهين أحداً سوى رأسي
رأسي المعبأ بالشوارع والجثث والكلابات
إنك لا تشبهين أحداً
لذلك أرفض أن تمتد يدك لإشعال سيجارتي
يا امرأة قصصت عليها أسطورة كو- نغاي
ألا أبدو لك كقاعدة أرضية
لإطلاق الأغاني على البشر
فلماذا تنظرين إلي ببلاهة؟

مياه مالحة

نحن الأطفال البلهاء

الذين لم نغمس أجسادنا بالماء المقدس

لماذا لا نذهب إلى البحر

لنسنّ أسناننا بمياهه المالحة

ونعود إلى الوطن بقلوب قوية؟

١٦٧ سم

أنا رجل وسيم

طولي ١٦٧سم

أنا تراكتور معطوب

أبحث عن عمل منذ ثلاثة أشهر وتوابيت

جلست في المقهى لأشرب شاياً ممزوجاً بالدبابيس

جلست في مقهى

النساء فيه يتدلين من الأشجار

كما تتدلى مصابيح النيون في معرض دمشق الدولي

أنا رجل وسيم

قال لي صديقي: ”مدّ يدك واقطف امرأة“.

أيها الصديق الجاهل

الحب قطاع خاص

ولذلك علينا أن نفعل شيئاً.

قلب مكسور

لي قلب مكسور كسفرجلة

لدى كل رجل قطعة منه

اجمع الرجال جميعاً وقل لهم:

نحن لسنا لصوصاً

إننا نعمل ثماني ساعات في اليوم

ومن حقنا أن نأكل السفرجل

اجمع الرجال جميعاً فتجمع قلبي

قلبي المكسور كسفرجلة

ذلك الطفل.. تلك المرأة

ذلك الطفل الذي يقرأ في مجلة قديمة
إنه يفكر كيف سيستطيع أن يخرج الشمس من
ردائها الناصع ليشاطرها الاحتراق
ذلك الرجل في ردائه الشفاف
إنه يفكر كيف سيستطيع أن يقبض على المرأة الهاربة
ليشاطرها الحب أمام جميع المخلوقات
وتلك المرأة
المرأة الهاربة كرمل ناعم من بين أصابع طفل
- طفل يقرأ في مجلة قديمة -
تمد يدها إلى الشمس
وترد للعالم أشياءه
إنها أشياء صغيرة جداً
أشياء صغيرة وليست تافهة
بيوت، وحوانيت، وأرصفة، وجوع
وأيضاً
قصيدة نائمة في مجلة قديمة

إنها تقترب

هي ذي تقترب كسفينة محملة بالجثث

الساعة ذات الرقاص الرتيب تؤكد على ذلك

النهار ذو الشمس المنهكة يؤكد على ذلك

والبيوت المتراصة كعيدان كبريت في علبة صغيرة

تؤكد على ذلك

وأنا أؤكد لكم

إنها تقترب كسمكة قرش مريعة

إنها تقترب كقنبلة معطوبة

ومعها يقترب كل شيء من كل شيء

اللحم من السكين

المدافن من الجثث

والنار من زجاجة بنزين سريعة الاشتعال

إنها تقترب

إنها تقترب

ساعة الذهاب إلى الموت باطمئنان

وحزن شديد

حيث يبحث الجائع في القمامة عن الأغاني

والعصفور عن السماء الزرقاء في الغرف المقفلة

والثائر عن الحصان تحت الوسادة

إنها تقترب وأنا لست وحيداً

إنها تقترب وأنا أحاول أن أبدو أقل حزناً

إنها تقترب وأنا أقذف قطعة السكر في فمي

وأذهب إلى المدرسة في القرى الموحلة

أطارد الدجاج في الطريق

وأتعلم كيف أقبل الفتيات الصغيرات

وأسرق لهنّ التوت من الأشجار الواطئة.

ورق

ورقة بيضاء كانت
ورقة بيضاء فقط
لم يكتب عليها العاشق رسالة
ولم تطبع عليها الدولة قانوناً
ورقة بيضاء نقية كالنبع
لم تمسكها يد
ولم تمزقها أصابع
ليست هوية شخصية
ولا بطاقة مجانية لزيارة المعتقلات
ورقة بيضاء فقط
قدمتها لحبيبي
فكتب عليها كلمة (أحبك)
ولم يستطع أن يقبلني

ثورة صغيرة

بعد قليل

سأقوم بثورة صغيرة

في هذه الغرفة السوداء

أمزق الكتب والأحزان والصور القديمة

وأضع الكرسي مكان المدفأة

بعد قليل.. بعد قليل

سأفكر بالزهور ويعاسيب الغابات

والخيول المرتعشة خلف القضبان

بعد قليل

سأقوم بثورة صغيرة

أضع رأسي فوق الوسادة

أغمض عيني على حلم متوحش

أمد يدي إلى قلبي

وأغني لروزا لوكسمبورغ

بندرشاه

لست سيئاً بما فيه الكفاية
لأضع السيف على عنق الحصان
وأبصق على الأرض بحقد قائلاً:
(انزل عن الحصان يا ترانتيان الجبان
انزل وبارزني).
ذلك أن السيوف وضعت في المتاحف
والأحصنة أصبحت للسباق
والبصاق تجمد في الفم
أما الفرسان الثلاثة فماتوا
وتركوا حصان الشعب في الحلبة
يصهل ويعض الأحجار
طالباً الطغاة للمبارزة.

أطوار غريبة

أطواري غريبة هذه الأيام

إنني أرقص دائماً

وأنظر إلى الخناجر التي تغوص في اللحم

وعلى شفتي ابتسامة من نوع ما

لقد تذكرت البارحة أغنية لطيفة

أغنية وقطيعاً من الصخور

أغنية وبحراً هائجاً كثور

أغنية ورجلاً ميتاً

ينظر إلى الأفق بعينين جاحظتين

أغنية.. ورقصتُ

كانت أطواري غريبة

فلم أغلق عيني الرجل بهدوء وحزن

كما يفعلون في الأفلام

لكني تساءلت:

لماذا يموت الرجال هنا وهم ينظرون إلى الأفق؟

لم يجبني أحد

لم تجبني سوى أغنية وقطيع من الصخور

فمددت كفي إلى عيني

- عيني اللتين تنظران إلى الأفق -

وأغلقتهما بهدوء

كان يجب أن أحزن وأتألم

كما يفعلون في الأفلام

لكني رقصت

إنني أرقص دائماً

فأطواري غريبة هذه الأيام.

اطمئنان

حجر بعد حجر

لن أسقط

كمدينة محاصرة

***

ورقة بعد ورقة

لن أسقط

كشجرة في الخريف

***

جثة بعد جثة

لن أسقط

في مذبحة علنية

تحت ظل القانون

***

أمام دبابات الإمبريالية

سأسرح شعر قلبي

وأنظر إلى الموت باطمئنان.

جندي

في الأزمنة البعيدة

في الأزمنة القريبة

كان يرعى برسيم الحروب كخروف صغير

حاصر المدن كما تحاصرون زوجاتكم في الفراش

اعتدى على الأفئدة والأشجار والحيوانات الأليفة

وبمساعدة رشاش صغير يزن /٥/ كغ

اغتصب امرأة وقرية ومساحات شاسعة من الموسيقا

وبمساعدة بذلة عسكرية

وعينين قاسيتين

وأظافر طويلة

منع الشمس من أن تزور ثلاثين رجلاً

وقطة

وأربع دجاجات

وعندما مات كما يموت الجميع

كان يعض شفته السفلى بضراوة

ويبصق على نفسه بدون استئذان أحد

ولم يترك - كما تعلمون -

بوليصة تأمين لأولاده.

فنان

وحيداً في الليل
أو وحيداً في النهار
استطاع أن يضع البحر والصحراء
الذئب والشاة
القاتل والقتيل
في إطار مساحته ٣ × ٧
إطار مزدحم بالخطوط والألوان الغريبة
ووحيداً في الليل
أو وحيداً في النهار
كان ينظر إلى لوحته ويفكر بقلق:
النافذة مغلقة جيداً
ولا شيء في الشارع سوى الغبار
فلماذا لا أجرؤ على البكاء أو النوم؟

رجل

.. وعندما كان الناس يرقصون

أو يشاهدون الأفلام الهزلية

رأيته يحمل الخضار للجوعى

والحقائب للمسافرين

البترول للطائرات

والألعاب للأطفال

.. وعندما كان الناس يتثاءبون في فترة الظهيرة

أو يمارسون الحب في الحمامات

كان يحمل السمك من البحار

والقمح من الحقول

الورد من الحدائق

والكتب من المطابع

وفي يوم ما

الأربعاء أو الخميس أو الجمعة

جاءت سيارة بيضاء

وحملته إلى المقبرة.

زوربا

زوربا أنا لا أعرفك

أأنت قديس أم ثائر؟

حبة خوخ ناضجة

أم مصباح بترولي زهيد الثمن؟

زوربا

لقد أحببت نساء بعدد السياط التي تلقاها جسدك

وتلقيت من الهزائم بقدر الرسائل التي كتبتها لعشيقاتك

كنت شيوعياً في مصر

ورأسمالياً في البلقان

إذاً، يا زوربا

أقديس أنت أم ثائر؟

عندما كانوا يصنعون الأسلحة

كنتَ تحاول إنقاذ الأرامل من الذبح

عندما كانوا يرقصون الروك أند رول فوق الجثث

كنت تعمل في المناجم بقوة/٣٠٠/ حصان

عندما كانوا يبتكرون الغازات المسيلة للدموع

كنت تبتكر الغازات المسيلة للفرح

ومع ذلك، يا زوربا، أسألك:

أقديس أنت أم ثائر؟

لقد عشت في زمن ثمن الإنسان فيه دولار واحد

وثمن البقرة أربعين دولاراً

لقد عشت في زمن يسيل فيه الويسكي

بالكمية التي يسيل فيها الدم

لقد صنعت حضارات الدنيا

وأسعدت البشرية لقرون طويلة

ولكن لماذا عندما متَّ

يا زوربا المسكين

لم ترثْ زوجتك منك

سوى آلة موسيقية ثمنها ربع جنيه استرليني؟

هيلين

(إلى ن. أبو عفش)

.. وإنها لكذلك

إنها وظيفة الخارجين من خنادق الألم

حيث كل شيء مباح

الينابيع والخناجر والكواكب

وحيث كل شيء مفتوح

الركض والنحيب والقبلات

والبحث عن اليورانيوم في حويصلة رجل ذبيح

إنها وظيفتك أنت

وإنك لكذلك:

متين كالماء

واسع كالصدى

متيناً كالماء رأيتك

عندما كانوا يقتحمون دماغك ليصادروا منه:

الأسرّة التي أعددتها للعشاق

والأشرعة التي أعددتها للمراكب

أسلحة سبارتاكوس

عيني هيلين

ونظرية أينشتاين النسبية

وواسعاً كالصدى رأيتك:

/عندما كان صوتك تفاحة

تتدحرج في القلب

قنبلة من زهور وأرغفة

وطناً شاسعاً

وغطاء تدثر فيه أزقتك الباردات

عندما كان صوتك مذبحة لمذابحهم..

قلت لي:

إن هيلين أنثى مقدسة

قبضة من نهار وأحصنة

وطن للمصابين باليأس

نافذة، مطر

إن هيلين...../

وإنها لكذلك

إنها وظيفة الخارجين من خنادق الألم

حيث يطاردون الكلاب والفقراء

ويباد الذباب والقصائد بال- د. د. ت

وحيث كل شيء مباح:

البكاء على القبور

والضحك في الليالي المقمرة

زرع الطيور في حناجر الموتى

واصطياد الأرانب من دور السينما

إنها وظيفتك أنت

وإنك لكذلك

قريب كالحروب

وبعيد كالأغاني.

هيروشيما

في رأس السنة الجديدة
وكابن بار
سأجمع البحار والأشواق والأفكار الطارئة
وأرسلها بالبريد المضمون إلى أمي
أمي التي مازالت تتنفس أوكسجين العبودية
وتلتهم فطائر الإرهاب
منذ أن امتدت يد الإنسان إلى الإنسان
وجعلت منه مزرعة لإنتاج الحاسبات الإلكترونية
***
في رأس السنة الجديدة
سأجمع الصحف والمقابر والحانات
الإعلانات والشوارع وأماكن العبادة
وأعبئها بمحفظتي
كما تعبئ الفلاحات جرار الماء
من الينابيع البعيدة
أدخن بهدوء
ناظراً إلى الفظائع المنتشرة
كانتشار الذباب فوق قطعة حلوى
هنا الماء وهنا الصحراء
هنا العطش حتى الارتواء
وهنا الجوع حتى التخمة
وهنا باستطاعتك أن تشتري أصابع الأطفال

من الحوانيت

لتعلقها في غرفتك

بجانب لوحات فاتح المدرس

هنا الماء وهنا الصحراء

هنا القيود الممتلئة

وهنا القلوب النحيلة

ومن المطاعم كما في الحقول

من المدافن كما من علب الكبريت

تخرج جحافل الاستعمار

لتكتسح الأناشيد والأفئدة وأقلام الحبر الجاف

تعالوا.. تعالوا

أيها الهولنديون والدانماركيون والأمريكيون

تعالوا لنشرب القهوة ونتبادل الأنخاب

تعالوا لنحتفل بسقوط القنبلة الذرية الثانية

بين عيني هيروشيما

***

في رأس السنة الجديدة

سأجمع أسماء الطغاة كما يجمعون الطوابع التذكارية

في "ألبوم" ضخم من ورق الأيام

أضع فرانكو بجانب سالازار

موسوليني تحت هتلر

السادات أمام سوموزا

سميث بين ساقي سالومي

وأعطيهم حرية الموت تحت سنابك التاريخ

أغنية رجل متعب عائد إلى البيت

هذه الدنيا الموشكة على البكاء
برتقالة أم حجر
سمكة أم تمساح؟
وهذا القمر
الذي يطل كل مساء
بثيابه الرثة
مادّاً يديه إلى سكارى منتصف الليل
كشحاذ عتيق
هل أسأله من أنت؟
أم أغرز أسناني في رأسه؟
رأسه الذي كحبّة جوز فارغة
تتطوّح في هواء منتصف الليل.
أنظر إلى القمر كرومانتيكي عريق
وخنصري أمام أنفه
- سأخاصمك يا قمر
أيها الأصفر الكبير
لن أشرب معك القهوة
ولن أركض معك في البرية
لن أنتحب أمامك كعاشق
ولن أحجب وجهك كغيمة
وكجندي مهزوم عائد من حرب عادلة

سأنظر دائماً إلى الأسفل

راكلاً الحصى والمتاعب ببوز حذائي

وأنا أفكر بالمجهول.

فيما بعد

فيما بعد
بعد عشرين سنة أو برتقالة أو سيجارة
أجدها هنا
أجد حبيبتي التي من قطن وجسور ومساكن
تفتش عن قطرة المطر المتكسرة
بين أسنان الرمال
فيما بعد
بعد عشرين خنجراً أو صديقاً أو رحلة
أجدها هنا
أجد الأصابع العشرة النائمة في سريري
والعينين المغلقتين كطفل مصاب بالكآبة
فيما بعد
أفتح الباب وأدخل كالهواء
أفتح الأرض وأدخل كالقمر
فأجدها هنا
تعد ببطء السنوات التي قضيناها بتبادل النار
وقراءة الأنباء المؤلفة في الجرائد
وأجدها هنا
شرفة تطل على البشر بحنان
وإعلاناً يقرأه المارة دون أن يتأسفوا
على العمر الذي اختفى ببلادة
وأجدها هنا تقول لي:

افتح رئتيك على الأعشاب

ودماغك المليء بالكدمات على الأرصفة

فيما بعد. فيما بعد. فيما بعد

ثمة طفل، حجر، حصان، امرأة أو عربة

تضع بين يديك البلاد

وتدعوك إلى النزهة

بدون أن تسألك:

هل ثمن حذائك/٤٤/ ليرة

أم ليدك اليسرى ستة أصابع.

الكلمة الأخيرة

عن النقط السوداء الكافرة والقبلات الممنوعة من التداول
عن امرأة كسول تركت خلفها قميصها الممزق
ورسائلها الخضراء
عن فتاة كانت تحدثني عن الديوك مساء الاثنين
وعن المقاصل مساء الاثنين
عن الطفل الذي يريد أن يخدش وجه القمر بأظافره الطرية
والرجل الذي يريد أن يثقب قلب الطفل بسكينه
المدببة
عن الغضار والمشانق والأزمات والمشانق
عن الحروب المعبأة في الثلاجات
والسلام المحنّط في الشوارع
عن الحب والأحذية والإمبريالية
عن حليب الماعز وحليب الأمهات
عن جدول ضرب الموتى وعمليات تقسيم
الجثث
عن الأوطان البعيدة والوطن القريب
عن كومونة باريس وصناعة المرطبات
وثياب الهيبيين وعلي كتخدا
عن الآلهة الطيبة وأكاذيب إذاعة مونت كارلو
عن أسناني وأهدابي وجواربي القديمة
عن الأرض التي سقطت والسماء الموشكة على السقوط..
كتبت وكتبت وكسرت الأقلام

أقلام زهيدة الثمن كرأسي
وأقلام غالية أختلسها من جيوب أصدقائي
أقلام بيضاء بلا رائحة
وأخرى سوداء كوجه صبي باعني ورقة
يانصيب
قرب جسر فكتوريا
أقلام حمراء أحتفظ بها للأوقات الخطرة
وأخرى خضراء أكتب بها الرسائل لحبيبتي
كتبت وكتبت وكسرت الأغاني
كتبت وكتبت ولم أحتفظ إلا بقلبي
قلبي الذي أخبئه قبل أن أنام تحت وسادتي
خوفاً من قطاع الطرق والمسدسات اللطيفة
إنه الآن يريد أن يفر من قفصه الصدري
ليبحث عن عمل ورغيف أبيض
وفتاة ينام معها في غرفة صغيرة
مفتوحة دائماً للأصدقاء والكتب والعصافير.

بسيطٌ كالماء.. واضحٌ كطلقةِ مسدّس

(لِمَنْ أتحدّثُ اليوم
الإخوةُ أشرار
والأصدقاءُ ليسوا أصدقاء حبّ.
لِمَنْ أتحدّثُ اليوم
القلوبُ قلوبُ لصوص
وكلُّ رجلٍ يغتصبُ ما عندَ جارِه).

شاعر مصري قديم

تفاصيل

رائحة ما...

هناك رائحةٌ ما

ليست كرائحة الملابس القديمة

وبطاقات التعزية

والمستنقعات

رائحة ما...

حادّة، متردّدة، مسكينة

كدموع بنتٍ تبكي دميتَها المحطّمة

رائحة...

تدخلُ غرفتي بخجل في الصباحات الباكرة

تغسلُ وجهي

وتستمعُ مثلي لأغنيةٍ حزينةٍ آتيةٍ من الأعماق

رائحة...

تذكّرني دائماً

بجنودٍ عائدين من الحرب

وبحر

وفتاة كانت تطاردني ضاحكةً

في حقول القطن.

سورية

يا سورية الجميلة السّعيدة

كمدفأةٍ في كانون

يا سورية التعيسة

كعظمةٍ بينَ أسنانِ كلب

يا سورية القاسية

كمشرطٍ في يدِ جرّاح

نحن أبناؤُك الطيّبون

الذين أكلْنا خبزَكِ وزيتونَكِ وسياطَكِ

أبداً سنقودُكِ إلى الينابيع

أبداً سنجفّفُ دمَكِ بأصابعنا الخضراء

ودموعَكِ بشفاهنا اليابسة

أبداً سنشقُّ أمامَك الدروب

ولن نتركَكِ تضيعين يا سورية

كأغنيةٍ في صحراء.

القراصنة

قلتُ للسفن:
إذا رأيتِ القراصنةَ
بسيوفهم الطويلة
وقلوبهم الخرساء
فاسأليهمْ لماذا...
لا يستطيعون سرقةِ البحر؟

قلتُ للموت:
عندما تأتي إليَّ
لتدمّرَ حياتي
فالرجاء
أنْ تدمّرَها بلطف
ثم قلتُ للموت:
لا تقتربْ منّي
كيلا تعودَ إلى أمِّك
بعنقٍ مكسور.

الصمت

مساءً جاء الرجالُ متعبينَ من المرعى

مساءً جاءتِ النساءُ متعبات من الحقول

للرجالِ قلوبٌ موشكة على السقوط

وللنساءِ عيونٌ موشكة على البكاء

في المساء جاؤوا ورقصوا حتى الصباح

الجرحُ صارَ أغنيةً

والتعبُ مزماراً

غيرِ أنَّ رجلاً ما

ظلّ جالساً في الزاوية البعيدة

البندقية بين يديه كأفعى

والحياةُ في عينيه زمنٌ من فخّار

الرجلُ الذي ينظرُ بصمت

لا يبدو أنّه يشاهد التلفزيون

ولا يبدو أنّه يحلم

ولا يبدو نائماً

اللئيم... ما الذي يفكّرُ فيه؟

أرقام

لدينا كلُّ شيء
مليون رغيف لمليون جائع
مليون قبلة لمليون عاشق
مليون بيت لمليون متشرّد
مليون كتاب لمليون تلميذ
مليون سرير لمليون متعب
لدينا كلُّ شيء..
للصيف لدينا بحر
وللشتاء لدينا مدافئ
للقطارات محطّات كثيرة
وللسوّاح آثار
وآلات تصوير
لدينا كلُّ شيء
سوى أنَّ أغلبنا لا يملكون النقود والرصاص
لذلك مِنَ الأفضل ألّا نتفاءلَ كثيراً.

مَنْ؟

من سيفتحُ لي صنبور الحياة لأشرب
إذا جفَّ قلبي تحت هذه السماء الخائنة؟
من سيغنّي لي أغنيةً في المساء لأنام
إذا وضعوا بين جفني صخرة مدبّبة؟
من سيخرجني من هذه البئر العريقة
لأرى أشجارَ الصفصاف تحت ضوء القمر؟
من سيحلُّ لي هذه المسألة البسيطة:
(إذا كنّا نرتدي النار
كيف نستطيع أن نخلعها؟)
من سيشتري كفناً للشمس إذا ماتت؟
من سيفتح للقتيل الباب
إذا جاء لزيارةِ صديقِهِ بعد منتصف الليل؟
من سيذهب معي إلى السينما
ومن سيمشي معي في هذا السجن الطويل؟

لا شكّ بذلك يا ديكارت

لا أشكُّ مطلقاً

على الأقل عندما أكونُ حزيناً

بأنَّ الخشبَ يطفو على سطح الماء

والقططَ تتغذّى بالفئران

والأشجارَ تزهرُ في الربيع.

لا أشكُّ مطلقاً

بالسكينِ التي تقطعُ اللحمَ

والمطرِ الذي يقطعُ العطشَ

والإثنينِ الذي يقطعُ الطمأنينة.

لا أشكُّ مطلقاً

كما يعلمُ الجميعُ

بأنَّ واحداً زائد واحد يساوي اثنين

وأنَّ قليلاً من الملح والخيار والبندورة والبقدونس

المفروم يساوي سلطة.

ولكنْ ما أشكُّ فيه

يا ديكارت المجنون

بأنَّ أكذوبةً وأكذوبة

وبنايةً فوق بناية

ومستنقعاً قرب نهر...

يساوي ثورة!

كهنة بشوارب طويلة

قالت المرأة:

أريدُ أنْ أعيشَ في القمر

مع حقل قمح وشجرة وعنزة ورجل أحبّه.

قال الطفل:

أريدُ عصفوراً لأطعمَهُ

قطّة لألعبَ معها

دفتر رسم وأقلاماً ملوّنة

أرسم القطّة قرب العصفور.

قال الرجل:

أريدُ أنْ أعملَ وأتزوجَ وأسكرَ وأذهبَ إلى السينما.

قالت الشجرة:

أريدُ أنْ أظلَّ خضراء.

قال النهر:

أريدُ ألّا أتوقفَ عن الجريان.

وفيما بعد... فيما بعد

جاء بشرٌ صامتون

كهنةٌ بملابس سوداء وشوارب طوِيلة

غسلوا جسدَ العدالة بأحجار القوانين

وأخذوا الجميع إلى السجن.

سقراط

الذي لمْ نفعلْهُ اليوم
نستطيع أن نحقّقَهُ غداً
والذي أتعبَنا البارحة
نستطيع أنْ نضحكَ منه اليوم
القي بنفسك بين ساعديّ
كما تلقي امرأةٌ يائسة نفسَها من فوق ناطحة سحاب
هذه لعبتُنا الجميلة الضارية
التي لم يسجّلْها التاريخ
هذه حكمتُنا الساذجة
التي لم يتحدّثْ عنها سقراط
أيّتها الصديقة النائمة
لا تقفي أمامي مكتوفةَ القلب
فالشمس - كما يقولون -
لا تشرقُ في اليوم مرّتين.

أيام

ماما...

أما زلتِ تحتفظينَ ببارودةِ جديّ القديمة

بين بيتِ المؤونة وزريبة الحيوانات؟

أما زلتِ تسرّحينَ شعرَك بأصابعك النحيلة

وتخبزينَ لإخوتي فطائرَ الحكمة؟

أنا هنا يا أمّي

أحتسي فلسطين صباحاً مع فنجان القهوة

وأطردُ عن جسدِها البعوضَ والأكاذيب

أذهبُ معها إلى المدرسة

ونقرأُ معاً الصحفَ في المقهى

وحينما أكونُ حزيناً

تجلسُ بجانبي وتعدُني بأشجار البرتقال

ماما...

امسحي دموعَكِ بمنديلِ الجبل

ونظّفي بارودةَ جدّي بخرقة الأيام

فبعد فترةٍ سأعود إليك

وفي حقيبتي زجاجةُ عطر

وقليلٌ من الرصاص.

بالتساوي

المرأةُ التي تحبُّ التفاحَ
قطفتْ ثلاثَ تفاحات
واحدة لها
وواحدة لي
واحدة لحبيبتي.
الرجلُ الذي يلعبُ بالأحجار
بنى ثلاثةَ بيوت
واحداً له
واحداً لصديقه
واحداً لي ولحبيبتي.
الطفلُ الذي يعدُّ النجوم
عدّ ثلاثَ نجمات
واحدة له
واحدة لي
واحدة لحبيبتي.
الرجلُ الذي يريدُ كلَّ شيء
اشترى ثلاثةَ خناجر
زرعَ الأولَ في صدري
والثاني في صدري
والثالث في صدرِ حبيبتي.

الحرية

لا فائدة من الصراخ
ما دام الصوتُ لا يخرجُ من زنزانةِ الفم
لا فائدة من البكاء
ما دامتِ المناديلُ لا تكفي لتجفيفِ الدموع
لا فائدة من الطريق
ما دامت الأقلام مدجّجة بالسلاسل
لا فائدة من الثياب
ما دام الجسدُ مملوءاً بالسكاكين
لا فائدة من الحب
ما دامتِ القبلةُ جريمةً قانونيّة
لا فائدة من الرغيف
ما دام القلبُ سيظلُّ جائعاً
لا فائدة منّي
ما دمتُ سأموتُ دونَ رغبة
وثمّةَ فائدة لكلِّ هؤلاء
عندما نمضغُ عنبَ الحريّة.

ما يحدث لي ولكم

ماذا يحدثُ لي

إنّني أتألّمُ جداً

وأقول: آاااخ

كلما رأيتُ البشرَ والحيوانات والأشجار

ماذا يحدثُ لي

إنّني سعيدٌ جداً

وأقولُ: لا بأس أيّها الصديق

لم يزل لدينا بشرٌ وحيوانات وأشجار

البشرُ يعملون ويحبّون

الحيوانات تعملُ وتحبُّ

والأشجار تزهرُ دائماً

ولكن ما هو سيءٌ

أننا مازلنا نقول: آاااخ

في الصباح والمساء

وعندما نضعُ رؤوسَنا فوق الوسائد.

جدار

الذي وضع الجدارَ بين عالمين
بيديه الخشنتين
كان يقيسُ المسافةَ بين الحجر والحجر
مفكّراً بالطقس البارد في كانون
والذئاب التي تنسلُّ في العتمة والضباب.

الذي وضع الجدارَ
كان يقضمُ الخبزَ ويدخّنُ
ويطردُ الغبارَ والذبابَ عن عينيه الجميلتين.

لقد صنع عالماً صغيراً
بأربعةِ حواجز وسقف وأرض مغطّاة بالإسمنت
لرجلٍ أو امرأة أو طفل مثلي
أربعة حواجز وسقف وأرض مغطّاة بالإسمنت.

غداً في الصباح

غداً في الصباح
سنتسلّقُ الشجرةَ ونأكلُ التوت
غداً في الصباح
سأمسكُ يدكِ وأركضُ في البرّية
غداً في الصباح
سأقبّلكِ ألفَ قبلة
وأقولُ لكِ ألف صباح الخير
ولكنْ منْ يؤكِّدُ لي أنَّ الصباحَ سيأتي؟

الليلةُ مديدةٌ كالعصور
المرأةُ في الشرفة
وأنا في السجن.

قمر

كلُّ ما قاله الراعي للجبل
والنهرُ للأشجار
وكلُّ ما قاله الناس وما لم يقولوه
في ساحات الرقص والمعارك
قلتُهُ لك.

عن الفتاة التي تغنّي في النافذة
والحصى الذي يتكسّرُ تحت عجلات القطار
والمقبرة التي تنامُ سعيدةً منذ قرون
حدّثْتُك.

زهرة جسدي، كلَّ صباح
أقطفها وألقيها في الشارع
ليطأها القادة والحكماء واللصوص...
وزهرة جسدي، كلَّ مساء
أجمعُ تويجاتها المفتّتة لأجمعها لكِ
وأقولُ كلَّ ما حدث لي.

مرةً بجانبكِ جلستُ وبكيتُ
كان قلبي حقلَ أرز محترق
وأصابعي تتدلّى كألسنة الكلاب في الصيف
أردتُ أنْ أعبرّ عنّي بالحركات:

أن أكسرَ كأساً

أن أفتحَ نافذة

أنا أنامَ...

وما استطعتُ

عمّ أتحدّثُ بعد ستةٍ وعشرين عاماً

أو بعد ستٍ وعشرين طلقةً في الفراغ؟

لقد تعبتُ من الكلام والديون والعمل

لكنّي لم أتعبْ من الحرية

وها أنذا أحلمُ بشيءٍ واحدٍ أو أكثر قليلاً:

أنْ تصيرَ الكلمةُ خبزاً وعنباً

طائراً وسريراً

وأنْ ألفَّ ذراعي اليسرى حول كتفك

واليمنى حول كتف العالم

وأقولَ للقمر:

صوّرْنا.

انفجارات

البيضاء

-١-

كوحشٍ كبير، كبير

بأنيابٍ خضراء

ومخالبَ ممطرة

سأخرجُ إلى العالم

وحيثُ تلمعُ عيون الأطفال

وأجنحة النوارس

سأجلس مع القبلة قرب الينابيع

وأختبئ مع الفلاحات بين سنابل القمح

وأقول: أحبك.

-٢-

في هذه اللحظة تماماً

العالم قلب كبير يدقُّ بقوّة

العالم زهرة لوتس في شَعر فتاة صغيرة

العالم هرّة بيضاء تموء بلطف وهي تشرب

العالم أغنية مسافرة في قطار مجهول

العالم يمامة...

في منقارها بطاقة بريدية:

إنني أحبك.

-٣-

سألعب مع الأطفال بالحصى والأوراق الملوّنة

سأقيم البيوت من رمال الصحارى والشواطئ المبلّلة

سأقول للصخرة: لنبتسم

للأغصان: لنضحك

للتراب: لنرقص

للوسادة: لنتنفّس

للجبال: لنغنّ

للموتى: لنبدأ

للأحياء: لنستمرّ

للأرقام: لنكبر

للحروف: لنتّسع

للفصول: لنتبدّل

للغيوم: لنمطر

ولك أيتها المرأة

سأقول: أحبك

أحبك كلما قطفت وردة

وكلما قطفتني السكاكين.

-٤-

السبت، الأحد، الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة...

أنا أحبك

الشتاء، الربيع، الصيف، الخريف...

أنا أحبك

السابعة صباحاً، السابعة مساءً،

الثانية بعد منتصف الليل...

أنا أحبك

أحبك هنا وأحبك هناك

في الضباب والأودية والمنازل والحقول

على الأرصفة وحبال المشانق

بين المصانع والجرّارات وتحت قنابل الإمبريالية...

أنا أحبك.

-٥-

سأبني شمساً بثلاث نوافذ وأربعة أبواب

سأزوّج البحر من فتاة النجوم

سأطلق غابة على الصحراء الكبرى

سأقلّد الريح وساماً من البرتقال

سأطفئ الجحيم بقطرة من الماء

وسأقول لك: أنا أحبك.

-٦-

لا تحجزوا لي مقعداً في طائرة مخطوفة

ولا زنزانة في بلد بعيد

ولا موتاً في مجاعة عالمية

لا تغلقوا النوافذ والأبواب والجدران والدروب

الطويلة

لا توصدوا البحر والحدود والسماء العالية

لا تتركوا أوديب يقتل أباه

ولا هاملت يقتل نفسه

لا تصنعوا التوابيت

ولا تدمّروا السفر

لا تأخذوني إلى عام ٢٠٠٠

أو عام ١٦٠٥

أو عام ٣٧ ق.م

أريد أن أظل هنا

في تموز ٢٤ تموز ١٩٧٩

بفم مليء باليانسون

وقلب مزروع بالقطن

وأن يظل العالم ٢٤ تموز دائم

فهذا يعني بأنّني أحبك.

غرفة صغيرة وضيّقة ولا شيء غير ذلك

غرفة صغيرة صالحة للحياة

غرفة صغيرة وضيقة صالحة للموت

غرفة صغيرة ورطبة لا تصلح لشيء

غرفة صغيرة فيها:

امرأة تقشّر البطاطا واليأس

عامل باطون لا ينام أبداً

بنت تبكي كثيراً بدون سبب

وأنا ولد مشاكس وغير لئيم

لديّ كتب وأصدقاء

ولا شيء غير ذلك.

ومنذ أن ولدت بلا وطن

ومنذ أن أصبح الوطن قبراً

ومنذ أن أصبح القبر كتاباً

ومنذ أن أصبح الكتاب معتقلاً

ومنذ أن أصبح المعتقل حلماً

ومنذ أن أصبح الحلم وطناً

بحثتُ عن غرفة صغيرة وضيّقة

أستطيع فيها التنفّس بحريّة.

إنني أتنفس بحرية

في غرفة صغيرة وضيقة

أخلع ثيابي وأنام
أخلع فمي وأتكلم
أخلع قدمي وأقوم بنزهة تحت غبار السرير
مفتّشاً عن بقايا أطعمة وقطط تحب المداعبة.

على الرف في الغرفة كتب وأصدقاء
وهناك أيضاً حزمة جافّة من البرسيم
صورة لغيفارا ولوحة سوداء لمنذر مصري...
عندما أجوع ألتهم الكتب وأقول للأصدقاء:
- أيها الأصدقاء، تعالوا لنتحاور...
وأصدقائي كثيرون
الذين يحبونني لا يتركون لي فرصة للموت
والذين يكرهونني لا يتركون لي فرصة للحياة
وغداً على الأرجح
سألتَهِمُ الأصدقاء
كما التهمتُ الكتب وقرارات الأمم المتحدة
وغداً على الأرجح
سأكفُّ عن الحلم
مثلما كفّت الآنسة (س) يدها عن شؤون قلبي
وغداً على الأرجح
سأترك للغرفة تأسيس حياتي
بجدرانها الخمسة المدمّاة
ونافذتها الوحيدة المشرعة.

في غرفة صغيرة وضيّقة صالحة للبكاء

في غرفة صغيرة وضيقة صالحة للحب

في غرفة صغيرة وضيقة صالحة للمؤتمرات

لم أستطع أن أتآمر على أحد

لم أستطع أن أفعل شيئاً.

في غرفة صغيرة وضيقة صالحة للكتابة

لم أستطع إلا كتابة وصيتي الأخيرة

الغرفة الصغيرة الضيقة

الممدة كجثة فوق سرير الأرض

قابلة مثلي للتشريح

ومثلي قابلة للإبادة.

في الغرفة الصغيرة الضيقة

أقرأ الصحف والمذابح

في الغرفة الصغيرة الضيقة

أعوي كعاصفة وأغرّد كسنبلة

أنا في الغرفة الصغيرة الضيقة:

نهر مكسور

وأحياناً أمة مضطهدة.

- أين ذهبت المرأة؟

لتموت في الغرفة الصغيرة الضيقة.

- أين قررْتَ الموت؟

في الغرفة الصغيرة الضيقة.

كم عمرك؟

غرفة صغيرة ضيقة.

- ما هي الأرض؟

غرفة صغيرة ضيقة.

اليوم صباحاً وكإنسان مقتول

يعرف تاريخ ولادته ولا يملك شهادة الوفاة

أغلقت عيني النافذة

وتركت الغرفة الصغيرة الضيقة

تفيض حتى حافتها بالأمراض

اليوم صباحاً

قلت سأفتّش عن فاكهة لم تلمسها يد

وصديق لم تذهب به رصاصة إلى السماء

ذهبت إلى الأشجار وما وجدت أحداً

إلى الينابيع وما وجدت أحداً

إلى الصخور وما وجدتُ أحداً

إلى الحيوانات وما وجدت أحداً

ذهبت إلى المطارات

والشوارع

ومؤسسات الأيتام

فحسبوني شحّاذاً ووضعوا في كفّي النقود...

اليوم مساءً وكحصان مقطوع الرأس

عدت إلى الغرفة

الغرفة الصغيرة الضيقة

وبلطة ضخمة من الصراخ تنمو تحت أظافري.

حيث في كل خطوة قمر مكسور

لقد بدأنا نعرف ما معنى الزمن
عندما نعود إلى البيت وحيدين
متشابكي القلوب والأصابع
بدأنا نعرف ما تعني الصخور النائمة في البحر
الشمس النائمة في السماء
والأغاني النائمة في المقبرة
بدأنا نعرف لماذا ننام ونأكل
ونسير في الشوارع بلا هدف
حيث في كل خطوة قمر مكسور
حيث في كل كلمة قبلة مذبوحة
حيث في كل (صباح الخير) طلقة مخبأة
لم نستطع أن نمزّق بها دماغ صياد
لقد بدأنا نعرف ونفكّر ونتألم بشكل حسن
محاولين أن نقول للفتاة الجميلة:
(هذه المظلّة لا تصلح للوقاية من النار
هذا الثوب لا يصلح للقيام بنزهة إلى الغابة
هذه الأصابع لا تصلح لمداعبة قطّة
وهاتان العينان المليئتان بالسنابل
لا تصلحان لرؤية الجوع
وهو يتقلب بعنف فوق فراش شائك)
ههنا كل شيء مريض:
البشر والحيوانات والأزهار

القوانين والدول

الآلهة الطيبة والشياطين الشريرة

الذين رحلوا عنّا

والذين ما زالوا يتشبثون بنا

مثلما تشبث السندباد بجسم حوت بليد

معتقداً أنه صخرة

وها نحن نغوص

مرضى ومعذّبين ومتعبين وجوعى

في هذه الهاوية الرحبة

التي اسمها (حياتنا)

نعرف ونفكر ونتألم بشكل حسن

نعرف لون الأفق في السادسة صباحاً

لون الطفل وهو يغادر صباحه إلى الأبد

ولون الصباح الذي لا يزورنا

إلا عندما نشعر بحاجة إلى النوم.

أنت،

اخلع عنك الحياة واذهب بصراحة إلى الموت

الموت يا عزيزي سمكة لن تقبض عليها

إلا إذا كانت يداك جافّتين

ومشاعرك حافية

أنتِ،

اخلعي حياتك وأوقدي شمعة

ولا تفكري كثيراً بشهداء الأقاليم

لا تفكري بالبحارة التعساء

ولا بالقرصان الجميل

ولا تفكّري بإفريقيا الخضراء

ولا بآسيا الرمادية

لا تفكري بالبجع ولا بالتماسيح

لا بالنهر ولا بالزورق

فقط اتركي نفسك بهدوء قرب شمعة

بذاكرة بيضاء وقلب صافٍ

ولنحاول معاً أن نعرف ما معنى الزمن

عندما، كجندي مسكين

يمد ذراعه السليمة

طالباً منّا صدقة

جندي مسكين أو امرأة نحيلة

على السرير العاري كانا يموتان

(بهدوء... بهدوء... بهدوء)

تفتح المرأة عينيها وتنظر إلى الجندي بدهشة

يفتح الجندي ساعديه ويضمّ المرأة بخوف

بدهشة وخوف كانا يموتان

والعالم حولهما يتداعى ويختفي

والناس

الناس الوادعون الطيّبون

الأبرياء حتى رؤوس أصابعهم

كانوا ينظرون إليهما بلا مبالاة

وحينما انتفض الجندي وطلب سيجارة

وحينما انتفضت المرأة وأعطته السيجارة

فتح الهواء الباب وأطفأ عيدان الثقاب...

أنا رجل مسكين.. وأنت امرأة نحيلة

أنا بعيد.. وأنت مثلي مثلي مثلي بعيدة

يداك الملوثتان بالحب لا تغسليهما

الوحش المقتول في قلبك

اتركيه هناك يتفصّد موتاً

دثّريه بالأغاني وضعي يديه فوق صدره

وغداً، أو اليوم،

عندما تصبح الحرية كالهواء مباحة

عندما يتداعى الأباطرة كالجدران القديمة

عندما يمتلك الجميع قليلاً من الرصاص

وكثيراً من القلب

وغداً، أو اليوم،

عندما نعرف ونفكر ونتألم بشكل حسن

وغداً، أو اليوم،

سنحاول أن نسير في الشارع

نتكلم بغبطة وبلا خجل

ووحيدين نعود إلى البيت

متشابكي القلوب والأصابع

وللشجر أن يكون أشدّ اخضراراً

وللبحر أن يكون أشدّ اتّساعاً

ومثلما يحقّ للسكين أن يكون حاداً ومؤلماً

فللخطيئة الجميلة حقّها في أن تتكاثر كالأرانب
حيث في كل خطوة قمر مكسور
حيث
في
كلّ
كلمة
قبلة
مذبوحة.

بين يديك أيها العالم

فلتأت إليّ الآن

فلتأت إليّ الآن

الباب مفتوح والنافذة مفتوحة

وكل ما هو لي

وكل ما هو ليس لي

وكل ما رأيته وعشته وانتظرته

ينتظرك الان:

المائدة والسرير والضوء ورائحة جسدي

العشب والأسماك والأزهار وقلبي

كل شيء ينتظرك

كل شيء ينتظرك.

فلتأت إلي الآن

إن الزمن لا يتغير أبداً

إن الزمن لم يتغير قط

فالصيف كالخريف

والسبت يشبه الأحد والأربعاء

أما الذي تغير دونما انقطاع

فهو نحن

نحن الذين نذهب إلى الحروب والمصانع والمراعي

ونبتكر كل ما له علاقة بنا:

الرصاص والخبز

السجون والحرية

السجائر وأقلام الرصاص
السكاكين والورق والأغاني
الألعاب والقيود والمبيدات الحشرية
إننا نفعل كل ما نستطيع
بين يديك أيها العالم

بين يديك أيها العالم
دمي يسيل الآن
يسيل وأراه
يسيل ويتبعثر ويتشابك ويفترق
ينحني وينكسر ويميل يساراً ويميناً
إنه دمي أيها العالم
دمي الصامت الثرثار
الذي يرسم بنفسه صورتي الشخصية
ووجه من أحب وأكره

بين يديك أيها العالم
متدفّق ومنطوٍ
بعيد وقريب
أتنقل من شارع إلى جدار
ومن صديق إلى قاتل
ومن أغنية على غبار
أتنقّل وأتنقّل
حاملاً خضاري وقمحي وكراريسي

بنادقي وزهوري وفراغي
دونما راحة ودونما تعب
ذلك أنني أعيش لأتساءل
أو أتساءل لأعيش:
ما الذي فعلت بنفسك يا هاملت؟
وما الذي تنتظرينه يا بنلوب؟
وماذا أعطت لك الحياة يا سقراط؟
ولم تثير رعبنا يا هيتشكوك؟
وأنت يا أبي...
أيها السكير، المريض، المقامر
أيها الحالم، الطيب، المسكين
أما زلت تتناول عشاءك المعتاد
بيضتين مسلوقتين
قليلاً من الزبدة
نصف رغيف
وهموماً كاملة
وأنت يا أمي...
أيتها الشجرة التي لم تثمر غيري
أما زلت تنامين باكراً
عارية إلا من أوراقك الخضراء
الخضراء دائماًبين يدي العالم؟

بين يديك أيها العالم:
النافذة مشرعة وأنا وحيد

(من يأتي إلى من)

الأضواء ساطعة وأنا معتم

(من يضيئني من)

السفر... السفر... السفر...

هو ما أريد

الحرية... الحرية... الحرية

هي ما أطلب

أن أضم المرأة

وأسحب القمر من أنفه إلى غرفتي

أن أرقص وأرقص وأرقص

حتى تتعب الموسيقى

أن أحملك أيها العالم

أهدهدك كطفل

وأزعل منك إذا أخطأت في الحساب

أن آكل وأعمل وأشرب وأتنفس

كما يفعل المبدع الصغير الكبير

الذي يزرع القمح بين الصخرة والصخرة

ويترك للطفل حرية الحركة والبكاء

المبدع الصغير الكبير

الذي يشبك يديه خلف ظهره

في العطلات الأسبوعية

سعيدًا ببنطاله النظيف

وذقنه الحليقة

ابنك أيها العالم

ابنك الطويل، القصير، البدين، النحيل، الذكر، الأنثى،
العاجز، العطشان، الخائف، المضيء، المتردّد، المباشر، الصادق، البسيط، المغامر، المجنون...
ابنك الذي من سهول وماعز ومطر كثيف
الضائع بين سبارتاكوس ونيرون
بين يسوع ويهوذا
الذي جرّب كل شيء
ولم يتوصل إلى شيء
لأنه...
لأنه ما زال بين يديك أيها العالم.

... وأنا أنتظرك الآن
حزيناً كرسالة لم تصل
ووحيداً كفزاعة عصافير
أنتظرك وأعرف أنك معي
رجلاً وامرأة وطفلاً
طيراً وموسيقى وغابة وطريقاً طويلاً...
وسواء كنت في العمل أو البيت أو الشارع
أراك وأسأل عنك
أفتقدك وأسأل عنك
وأينما ذهبت سأتبعك
وكلما التقيتك سأهرب منك
لكنني دائماً... دائماً
أفتح لك الباب وقلبي

وأقول تعال

قبلني قبلني قبلني

قبلني قبلني قبلني

هذه أصابعي وهاتان عيناي

هذه أظافري وأنيابي

وهذا هو جسدي

دافئاً وبردانَ ومحموماً

وهذه هي نفسي

فارغة إلا من الصخور والرمال

وممتلئة بكل شيء

وكل شيء لا يستطيع احتواءها

حتى أنت...

حتى أنت أيها العالم.

بين يديك أيها العالم

أعدّ حروبي وهزائمي وانتصاراتي

وأسجل أسماء الجلادين والضحايا

أسماء العشاق والفاشلين والمغامرين والمضطهَدين

ولا أنسى اسمي

اسمي الوحيد، المتكرر، المتفرّد

الذي يعرفه الجميع ولا يعرفه أحد

محمود أو الياس أوْ مريم

رياض أو سوزان أو عادل...

ما الذي يهمني من ذلك؟

فالجميع يحبّون ويكرهون ويزورون المقابر
(على الأقل مرة واحد بعد عمر مديد)
والجميع عندما ينامون
ينامون بطريقة واحدة ومختلفة
ولذلك لا نختلف في شيء
سوى أن بعضنا ينام بعين مفتوحة
وبعضنا لا ينام أبداً
وبعضنا ينام دائماً:
في قبر، أو حانة، أو وظيفة
في صحيفة، أو كتاب، أو متحف
والجميع الجميع
يملكون الأيدي والرقاب والصدور والذكريات
غير أن بعضهم لا يملكون القلب
وبعضهم قلوبهم سوداء
وبعضهم رموا قلوبهم في البالوعات واستراحوا
استراحوا بين يديك أيها العالم

بين يديك أيها العالم
أدور وأدور وأدور
كدواليب الحظ
ثم أتوقف على رقم
لا علاقة لي به
وسواء كنت ورقة يا نصيب خاسرة أو رابحة
وسواء كنت رقماً أحادياً أو مزدوجاً

فالحصان الخاسر لن ينال الجائزة

والحصان الرابح لن يجني سوى القليل أو الكثير من التبن والذرة

أما الرابح الوحيد

فهو الذي يملك الحصان ويقوده ويوجّهه

الرابح الوحيد

صاحب المهماز والسوط والقبضتين الفولاذيتين

وانا ملكك أيها العالم

أنا جوادك الخاسر

ونحن ملكك أيها العالم

نجن جيادك الخاسرة

ننطلق وننطلق وننطلق

وأخيراً إلى الإسطبلات نعود.

بين يديك أيها العالم

المدارس = القتل

الأصدقاء = النميمة

الثقافة = الكذب

التاريخ = التكرار

والدولة هي الدولة

بين يديك أيها العالم

نحن لسنا سعداء

بين يديك أيها العالم·

نحن لسنا تعساء

نحن لا شيء البتة

هذا ما يقوله النسيم

وهذا ما تقوله أمريكا

بين يديك أيها العالم

نردّد الكلمات

الحرية... الحرية... الحرية

الخبز... الخبز... الخبز

الحب... الحب... الحب

إننا نردّد الكلمات

منذُ توت عنخ آمون

وحتى آخر جثة في بيروت الشرقية

الخبز أيتها الأمم المتحدة والمتفرقة

الحب أيها الله

الحرية أيتها الأصفاد والأسلاك الشائكة

والحياة... الحياة

بين يديك أيها العالم

شباط ١٩٨٠

أيتها الأحجار استمعي إلى الموسيقى

البداية غداً

وغداً ليس ربطة عنق أو حذاء فاخراً

البداية غداً

وغداً ليس كلمات متقاطعة أو مؤتمر هافانا.

البداية غداً

وغداً تحت المقصلة أو بين السلاسل

سأطالب بالحياة الجديدة

فالحياة التي نراها في الإعلانات التلفزيونية

والحياة التي تنام على الأرصفة

ليست هي الحياة التي نريد

غداً

لن أتحدث عن آلام المسيح

كما يتوقع نجارو الصلبان

ولن ألعب مع الأطفال

كيلا توبّخني منظمة اليونيسيف

فغداً...

ببساطة ويأس شديدين

سأمدّ قلبي وأطالب فقط:

بالعمل والخبز والكتب والأمن والسفر و... إلى آخره

لست بائع خردوات

ولا مهرّب دخان مارلبورو
ولا أملك مسدّساً لأنتحر
ولا قنبلة لأخطف طائرة
لم أبع قلبي بالمزاد العلني
ولم اشتر الويسكي من السوق الحرّة
لم أقتل رجلاً
ولم أصفع امرأة بوردة
فلماذا... لماذا
أيتها الأحجار التي لا تحب الموسيقى
كلما شاهدني حفارو القبور
يفركون أيديهم بغبطة
ويدعونني لزيارتهم؟

منذ السكاكين الحجرية
وحتى أطفال الأنابيب
ما زلت أبحث عن الحرية...
أنام وأغنّي
أعمل وأعصر المناديل
أنتظر وأقشّر البصل
وفي الصباح أو في المساء
في السابعة أو الرابعة والعشرين
أدخل الحجرة وأجلس
أنا: قلب أبيض ويدان زرقاوان

نحن أبناء الغد

مازلنا ننام في المقابر

المقابر التي

بين أشجار الليمون وبنادق القنّاصة

نحن أبناء الغد

ما زلنا نقف تحت السماء الصغيرة

وقرب هذا العالم المسكين

(البارحة واليوم وغداً)

ونمدّ قلوبنا إلى المارة:

- أغنية أيها الأصدقاء

قبلة أيها الإخوة

قبلة وأغنية من أجل الله

قبلة لليوم الأول من السنة

وأغنية لليوم الأخير

غداً...

لا تهرب منّي

إلى الشوارع الكئيبة

فتحت لك الباب

تعال. ادخل. قبّلني.

حدّثني. نم معي.

فعند المنعطف ينتظرونك

ببندقية مُلقّمة

النهاية غداً:
البارحة تعارفنا
اليوم قبّلتك
وغداً سنفترق
البداية غداً:
البارحة حدثت المذبحة
اليوم دفنوا الموتى
وغداً ستحدث مذبحة جديدة.

غداً، صديق قديم:
(إنهم يموتون بالآلاف في سجون سانتياغو)
غداً، فلكي عجوز:
(برج الحوت سيذهب إلى الجحيم)
غداً، فلاحة طويلة:
(الأمطار قليلة هذا العالم)
غداً...
رسالة إلى امرأة مجهولة:
(أريد أن أحدثك طوال شهر أيلول).

حار كجمرة
بسيط كالماء
واضح كطلقة مسدس
وأريد أن أحيا
ألا يكفي هذا
أيتها الأحجار التي لا تحب الموسيقى؟.

يوميات

١٣- ٨- ١٩٧٩

للأيام الجميلة القادمة أسنّ أسناني
للمرأة الجميلة المقبلة أعدّ السرير
وعلى الحائط الأسود
فوق الطريق العاري
تحت السماء الزرقاء
أبعثر رماد قلبي
منتظراً البسكويت اللذيذ
والدراجة الصغيرة
وعلامة (ممتاز) في الحب.

١٧- ٨- ١٩٧٩

لا أحد يعرفني سوى العشب

لا أحد يلعب معي سوى القطّة

وحينما أنام وحيداً

بقدمين متباعدتين وذاكرة عاتية

بطائرة ورقية وبالون كبير

تأتي إلي (أليس)

بشريطة بيضاء وسن مكسور وجوارب ممزّقة

يأتي إلي الأرنب المسكين

والنملة الذكية

والحمار المتعب

وعلى سريري ينامون.

٢- ٩- ١٩٧٩

إذا أردت أن ترى

ثلاثة رجال يقرعون باب التفاحة

ثلاثة رجال ليسوا من ذهب

الأول: مستودع ذكريات

الثاني: شمس في زنزانة

الثالث: شجرة آلام

إذا أردت أن ترى...

فتعال إليّ في الثالثة صباحاً

قبل أن ينكسر ضوء القمر

قبل أن يحين موعد الضجّة

تعال مع العربات التي تذهب بالعمال إلى المصانع

مع العاشقة التي تدثّر ثلاثة جنود

مع الدجاجة التي تبحث عن حبوب العدس

مع الشاب الذي يصنع خبز الموتى

تعال، لأحدّثك عنّي

أنا ثلاث صرخات

الأولى: للمغامرة

الثانية: للذهاب إلى العمل في الثامنة

كالمعتاد.

٧- ٩- ١٩٧٩

الذي يريد الضحك فليأتِ

إنني أخبّئ نكتة

الذي يريد البكاء فليأتِ

فلديّ حصّالة دموع

والذي يريد الحب

والذي يريد الحب

فليأتِ... فليأتِ

فلديّ سرير شاسع كصحراء

ووسادة صغيرة كرأس خروف.

١٧- ٩- ١٩٧٩

تعرّفت على امرأة منذ أسبوعين

بطريقة عاديّة

أعطتني ذراعها بسهولة

وقالت: لديّ نصف كيلو عنب

قلت: ونستطيع أن نشرب القهوة.

تعرفت على امرأة

لم ترَ مقبرة قط

تضحك وتبكي وتحتج بسهولة

ولا تفهم...

لماذا يتحدّث الناس عن الحكومة

في الوقت الحاضر.

٢٩- ١٠- ١٩٧٩

بالصوت والإشارة والقبلة

برفيف الأهداب وهزّة الرأس

بالأصابع والعيون

بأفراحنا الصغيرة ودمارنا الكبير

بأنيابنا المكسورة وأظافرنا المقلّمة

بالأوراق البيضاء وأقلام الحبر الناشف

بالأغاني الحزينة والموسيقى الخرساء

تعالوا لنتفاهم

لنتفاهم.. لنتفاهم

كما تفعل النملة مع النملة

والليل مع النهار

وإذا حصل أيّ سوء

فلنضرب الطاولة بقبضاتنا المتعبة

لنمتحن قدرتنا على الصراخ

لنستشهد بالأقوال المأثورة كبشر عاديين

ولكن قبل كل شيء

من الأفضل أن نتجرّد من المعاطف

والأحقاد القديمة

ونضع السكاكين والمسدسات قرب الباب

وندخل القاعة بنوايا طيّبة.

٣- ١١- ١٩٧٩

كل شيء له سعر
الكتاب والبيت والقهوة
الحذاء والنور وقصّاصة الأظافر
الدموع والدروب و(تصبحون على خير)
كل شيء له ثمن
بالدولار والمارك والجنيه الاسترليني...
فكم هي مضحكة
- أقول لنفسي -
حياة الإنسان في العصور القديمة
عندما كان يبادل الذرة بثمار البلّوط
والبقرة بسروال وقميص صوفي
والقبلة بأزهار البرتقال
والأغاني الطويلة.

١٥- ١١- ١٩٧٩

أنا حبة عنب حلوة

تعال وامضغني بأسنانك الرقيقة

أنا شجرة حب قريبة

أهرب إلى ظلي من شمس أيلول

أنا زهرة برية

تحت جنزير دبابة

ألا تريد أن تقطفني قبل أن أموت؟

وعل في الغابة

إلى هيفاء أحمد

"أنتَ في وحدتك

بلدٌ مزدحم"

- رافائيل ألبرتي -

قصائد

غرفة الشاعر

يفتحُ بابَ الكلمات ويدخلُ بخطىً خائفةٍ
في أنحاء الغرفة
بعض قصائد ذابلة
كلماتٌ تتمدّد فوق الكرسيّ
وأخرى تتعلّق بالمشجب
سنبلة تهرب من بين أصابعه
وطيور تقتحمُ الشفتين
يرى عشباً ينبت في المكتبة المهملة
ونبعاً ينبثقُ من الحائط
بعد قليل سوف يداهمه الليل بأقمار وكوابيس
تداهمه أشجار الغابة
ورمال الشاطئ
وحصى الأنهار
وآبار فارغة
يملؤها بحروف سوداء
ماذا يأخذ من جثث الأيام
وماذا يترك

غير قصائد ذابلة

وغبار الكلمات؟

وبعد قليل

سوف يداهمه الشرطي

ليسأله عن جمل غامضة

ويحذره من استعمال "القبلة" و"القنبلة"

ويمضي..

هو ذا الشاعر

يفتح نافذة القلب

يغلق عينيه

ويحلم بقصيدة حب

غرفة المحارب

يتوسد خندقه الرملي وحيداً
ويداه تحيطان برشاش مملوء بالموت
سيأتي الزوار مساءً
زائرة تحمل للأرض قنابل ضوئية
أخرى ستمشط بالنار سهولاً تمتد
سيأتي الأعداء مساءً
كقطيع ذئاب كاسرة
يلتهمون بيوت الطين
وأشجار التفاح
وكراسات الأطفال
ورأس الجندي
الجندي يرتب غرفته الرملية
الماء هنا
والطلقات هناك
وها هي صورة نرجسة تبتسم لجندي
يحمل رشاشاً وخضاراً
الزوار يجيئون
فأهلاً
يطلق طلقته الأولى
سيظل يقاتل حتى آخر حبة رمل من هذا الخندق

غرفة السائح

العالم غرفة هذا السائح
إذ يمضي في ردهات العالم
يجمع أحجاراً من مدن بائدة
ونقوداً لشعوب أهلكها الزلزال
ويجمع صوراً لجوامع ومتاحف
وتماثيل مرعبة
يمشي في أرصفة الدنيا
فيرى سفاحاً فيصوّره
وبائع ليمون فيصوّره
وراقصة يسألها:
ماذا تعني (Merci) بالعربية
ولماذا لا يزرع هذا الشعب "الأناناس"؟
السائح يفهم أو لا يفهم
يعلم أو لا يعلم
سيظل يسير وينظر ويصوّر
فالعالم غرفة هذا السائح
والنافذة كاميرا

غرفة مهدي محمد علي

هي ذي غرفته تنهض من بين الأنقاض

مسيجة بدم وعبير

ندخلها في الليل كقديسين جميلين

ويدخلها الشيوعيون، وعباد الشمس،

وأخبار المدن المشتعلة

هي ذي غرفته

أبعد من وطن

أقرب من رمش العين إلى العين

ويا مهدي

أرنا كفيك

ألم تنم الأعشاب عليك

ألم تورق أغصان القلب

وماذا يحدث لنبات البصرة

وتراب البصرة

....

....

....

هي ذي غرفته

أجمل من قبر

وأعلى من شجرة نخلْ

وصاحبها

طير في قفص

يفرك عينيه، يبعثر أوراقاً ورسائل،

يكتشف امرأة في فنجان القهوة

ذات مساء

سوف تدق الباب نباتات الزينة

تأتي الأزهار، وأشجار الصفصاف،

وأعشاب الغابة، وثمار اليقطين

وتحتل الغرفة.

الولد النائم

قبل أن يذهب للحرب مضى نحو السرير

أغلق عينيه بعينيه ونام..

رأى فيما يرى الأولاد

سهلاً فسيحاً تركض الغزلان فيه

سرباً من عصافير

وأشجاراً من الدراق

أزهاراً لها هيئة أقمار

رأى نهاراً واسعاً جداً

ومن أقصى النهار جاء رجل يسعى

ألقى على الطفل قميصاً من دم

فاختفى السهل وماتت الغزلان

والأشجار

اختفى النهار..

قال الولد الجميل: لا بأس

أغمض عينيه بعينيه

ونام

رأى عشرين ملاكاً يهبطون قربه

سألهم: هل تأكلون البرتقال

هل نستطيع أن نلعب لعبة الهرة والفأر

أختبئ الآن فوق سريري

جديني أيتها الهرة/ الملاك..

....

ومن أقصى السماء

جاءت القنبلة فوق سرير الولد الجميل

طار الملاك

وماءت الهرة حينما رأت إصبع طفل في التراب

قال الولد الجميل:

لا بأس، لا بأس

عاد إلى السرير متعباً

أغمض عينيه بعينيه

ونام..

رأى فيما يرى الحالم

أسماكاً على الجدران

ذئباً يسبح في البركة

تمساحاً يعود للملهى

وامرأة تنتظر الرب أمام قصر العدل

صاح الولد الجميل:

لا أريد أن أرى شيئاً

أريد أمي وزجاجة الحليب والقماط

قال الولد الجميل شيئاً

ليس حسناً جداً

وليس سيئاً جداً:

(عاش البط

عاش النهر

عاشت الهرة

عاشت الأشجار

عاشت أختي وأخي

ولتسقط الدبابة..)

...

...

أغلق عينيه بعينيه

ونام أبداً.

”عندما كان العصفور

يصفّر في العشب

والريح تنهش جدراننا العظيمة

كنّا كأنما في عيد

وكان كل شيء يتحقق“

- **غيليفيك** -

رغبات

كنجمة في السماء
كوعل في الغابة

أماميَ الكثير لأعطيه
وخلفي الكثير للمقابر
أمامي النهر ورائحة الصباح والأغاني
البشر الرائعون والسفر والعدالة
وخلفي الكثير الكثير
من الكهنة والتماثيل والمذابح
وها أنذا أمشي وأمشي
بين هزائمي الصغيرة وانتصاراتي الكبرى
وها أنذا أمشي وأمشي
متألّقاً كنجمة في السماء
وحرّاً كوعل في الغابة
لي وطن أحبه وأصدقاء طيبون
بنطال وحذاء وكتب ورغبات
ووقت قليل للرقص والجنون والقبلة
لقد بدأت أتعلم كيف أبتسم وأقول وداعاً
وبدأت أتعلم كيف أتألم

بعيداً عن الضجيج والعواصف
أما الكلمة الجميلة، الجميلة
التي تشبه طائراً أبيض
والتي تشبه شجرة في صحراء
فلقد اكتشفتها متأخراً قليلاً
مثلما تكتشف السفينة اتجاهها
ومثلما يكتشف الطفل أصابعه وعينيه
لذلك أمشي وأمشي وأمشي
فأمامي الكثير لأعطيه
وخلفي الكثير للمقابر
ولذلك أمشي وأمشي وأمشي
ولا أنتظر أن ينتهي طريقي
هذه صخرة وهاتان عينان
هذا قمر وتلك إوزة
وثمة أشياء كثيرة لم أكن أراها:
أيدي الأمهات
أكياس الطحين
وطلاب المدارس
إنني أفتح عيني كنبع صغير
وأتحرك برشاقة الرعاة
فلقد بدأت أعلم
- وربما متأخراً قليلاً -
أن آلاف الحروب وملايين الجرائم
لم تستطع منع القطة من المواء عندما تجوع

والوردة من أن تتفتح

والمطر من أن ينهمر بغزارة...

لذلك أمشي وأمشي وأمشي

متألقاً كنجمة في السماء

وحرّاً كوعل في الغابة

وعندما أصل إلى البيت

وحيداً أو عاشقاً

مرحاً أو حزيناً

أعترف لنفسي بأخطائي القليلة

وأنتظر:

عشب الطريق

هدير القطارات

وعمال المصانع

ولون السماء في الصباح الباكر

الباكر

الباكر.

رغبات

أريد أن أذهب إلى القرية
لأقطف القطن وأشم الهواء
أريد أن أعود إلى المدينة
في شاحنة مليئة بالفلاحين والخراف

أريد أن أغتسل في النهر
تحت ضوء القمر
أريد أن أرى قمراً
في شارع أو كتاب أو متحف

أريد أن أبني غرفة
تتسع لألف صديق
أريد أن أكون صديقاً
للدوريّ والهواء والحجر

أريد أن أضع بحراً
في الزنزانة
أريد أن أسرق الزنازين
وألقيها في البحر

أريد أن أكون ساحراً
فأضع سكيناً في قبعة

أريد أن أمد يدي إلى القبعة
وأخرج منها أغنية بيضاء

أريد أن أمتلك مسدساً
لأطلق النار على الذئاب
أريد أن أكون ذئباً
لأفترس من يطلقون النار

أريد أن أختبئ في زهرة
خوفاً من القاتل
أريد أن يموت القاتل
حينما يرى الأزهار

أريد أن أفتح نافذة
في كل جدار
أريد أن أضع جداراً
في وجه من يغلقون النوافذ

أريد أن أكون زلزالاً
لأهز القلوب الكسولة
أريد أن أدس في كل قلب
زلزالاً من الحكمة

أريد أن أخطف غيمة

وأخبئها في سريري

أريد أن يخطف اللصوص سريري

ويخبئونه في غيمة

أريد أن تكون الكلمة

شجرة أو رغيفاً أو قبلة

أريد لمن لا يحب الشجر

والرغيف

والقبلة

أن يمتنع عن الكلام

أعدّ الأيام على أصابعي
وعليها أعدّ أيضاً
أصحابي وأصدقائي
وفي يوم ما
لن أعدّ على أصابعي
سوى أصابعي"

- بول فانسانسيني -

مفارقات

الذئب

الذئب الذي افترسني
تركني وحيداً في الغابة
من يغطي جثتي بالأعشاب
بأوراق الأشجار اليابسة
بقليل من تراب؟
من يقرأ الفاتحة على روحي
من يغمض عيني الهلعتين
من يضع على صدري
صليباً من أزهار؟
الذئب الذي افترسني
صار أنا
أخذ وجهي الشاحب
وشفتي المرتجفتين
وقلبي الطيب
وظل محتفظاً بأنيابه
أنا الذئب.. ذو اليد البيضاء
أدور في المدينة وأعوي

أنا الذي قتل الصياد في الغابة

أنا الصياد.. احذروا حبي

واحذروا أنيابي

مقاطع

من أكاذيب الكلام
من أكاذيب الروائح
من أكاذيب الأصوات
من أكاذيب العالم
الكذبة الوحيدة التي تستحق التصديق
هي الحب

في حصار الماضي
في حصار الحاضر
في حصار المستقبل
لا منفذ للحياة
سوى الحياة

الكلمة الجميلة.. الكلمة اليائسة
الكلمة الحزينة.. الكلمة المرحة
الكلمة العاشقة.. الكلمة البسيطة
الكلمة الحية
كلها تنتفض في قاع صمتي

روتين

القهوة مع الحليب في الصباح
قبلة الزوجة السريعة
الطريق إلى العمل
الطريق إلى البيت
الطريق إلى السرير
ومن ثم..
القهوة مع الحليب في الصباح

إنه حيٌّ تماماً
المسه ولا تخف
فالموتى لا يخيفون

يهوي

مثلما يهوي ينزل من فضاء بعيد

نحو فضاء بعيد

هكذا تهوي روحه

هلعة، حزينة، ساطعة

نحو حياة مفعمة بأشياء يحبها

حياة تضيء ولو قليلاً

عتمة نهاره الحالك السواد.

خراب

كان عليه أن ينظر إلى المرآة
ليرى عشرات الثقوب والأثلام
تملأ سماء وجهه
وجهه الذي يشبه
قرية اجتاحها الطوفان
أو، على الأقل
لوحة باهتة الألوان
من القرن الثامن عشر

كان عليه أن ينظر مرة ثانية
وبعمق شديد
ليرى عينيه الضاحكتين الودودتين
تسخران من كل هذا الخراب.

حلم

دائماً كان يحلم
بتفاحة الحب الناضجة
ليحتويها بين أصابعه العشرة

كان ذلك حلماً وحسب
كالوصول إلى القمر
سنة ١٩٢٠

وكما في الأحلام
لم يعد الحلم حلماً
فها هو يقضم تفاحة الحب
وها هو سكرها يسيل على شفتيه

مرة استفاق
فوجد أنه يقضم قلبه.

تغيير

يرمي ثيابه في البئر

يرمي كتبه وخاتم الزواج

يرمي ماضيه المريض

وحاضره الخائف

يرمي أغانيه القديمة

وأصدقاءه المنافقين

يرمي كل ما تطاله يداه

من أوراق ومذكرات

من أفكار ودمى

يرمي بئر حياته في البئر

يرمي دماغه أخيراً

ويستدير

نقيّاً وأبيض وسهلاً

الآن فقط

يستطيع أن يقول: أحبك.

العاشق

اعطِ القناص رصاصاً
وانتظر بضع دقائق
فسيملأ الشوارع بالجثث

اعط النجار خشباً
وانتظر بضعة أيام
فسيملأ البئر بالنوافذ

اعط الحداد حديداً
وانتظر بضعة أشهر
فسيملأ البراري برجال يشهرون السيوف

اعط البستاني بذاراً
وانتظر بضع سنوات
فسيملأ الصحارى بالأشجار

أما العاشق.. أما العاشق
فلا تعطه شيئاً
ففي قلبه ما يكفي الدنيا
من السيوف والنوافذ
من الأشجار والجثث.

الراية

انظروا إليه

انظروا إليه فقط

لقد تفسخ جسده

منذ زمن بعيد

وما زال يحمل راية الحرية.

حياتنا الجميلة

الحياة حلوة
يقول العصفور
ويرتمي ميتاً قرب حذاء الصياد

الحياة حلوة
تقول الوردة
وترتمي ميتة في يد الولد الوسيم

الحياة حلوة
يقول
ويطلق على رأسه النار

الحياة قبيحة، كريهة، فاسدة، شريرة
يقول الطاغية
ويقضم قطعة من البسكويت.

بلادنا الجميلة

ثمرة ثمرة

تقطفين أيامي

يا بلادي الجميلة

فأستمع:

لا أحد يغني

سوى الساطور.

لا أحد

فتحت الباب
لم يدخله أحد
لا ضيف، لا امرأة، لا شرطي

فتحت النوافذ
لم يدخلها أحد
لا هواء، لا فراشة، لا أغنية تائهة

فتحت قلبي
لم يدخله أحد
لا نهر، لا رصاصة، لا طير

وها أنذا الآن
مغلقاً ووحيداً
أنادي
تعالي.

فصول

الصيف سينتهي

الربيع انتهى

الخريف سيأتي

والشتاء مازال بعيداً

في أي فصل نحن؟

عتمة

اشعل سيجارة للصديق

اشعل القلب البارد

اشعل الضوء ليمر الثوار

اشعل النار في التماثيل

اشعل شمعة من أجل المسيح

لا تطفئ حياتك.

الشهيد

إنهم ينتحبون
فوق الجسد البارد
حيث تتناثر الأزهار
زهرة على العنق
زهرة على البطن
زهرة على الكتف
زهرة بين الشفتين

إنهم ينتحبون
فوق الجسد البارد
حيث:
السكين في القلب.

شارع

هذه مدينة مليئة بالشوارع

شوارع مفتوحة

تؤدي إلى جميع الجهات

لكن، اسمعني، أرجوك

حياتنا مغلقة

والشارع الوحيد العادل

ذلك الذي يأخذني إلى قلبك.

الجدار

مثلما يمكن أن تصنع
من غصن الشجرة الأخضر هراوة
ومن زجاجة الكازوز الفارغة
أداة جارحة
مثلما يمكن أن تصنع
من الغرفة الأليفة زنزانة
ومن الشارع الواسع مسرحاً للقتل
مثلما يمكن أن تكتب رسالة تهديد
بالقلم نفسه
الذي كتبت به رسائل الحب
وتستطيع أن ترسم مشنقة
بالريشة نفسها
التي رسمت بها طفلاً يضحك
وطائراً يطير
وراعياً يغني
هكذا تماماً..
يتحول بعض البشر إلى جدران
قاسية وكتيمة كما ينبغي
سوداء ومزعجة كما ينبغي
جدران تستطيع أن تذق
مسماراً فيها
أن تضع عليها الصحف

والأواني

والكراسي الخشبية

أن تفتتها بالفؤوس والمطارق

لكن من المتعذر تماماً

أن تقول للجدار: يا صديقي

فيرد عليك: يا أخي.

نتفق أو لا نتفق

نحن متفقان:

الحياة جميلة

والناس رائعون

والطريق لم تنته

ولكن انظر إلي قليلاً

فإنني أتألم

كوحش جريح في الفلاة

***

نحن متفقان إذاً

الربيع سيأتي طبعاً

والشمس ستشرق كل صباح

وفي الصيف سيجني الفلاحون القمح

- الربيع يكفينا

والشمس أيضاً

والقمح إذا أردت

***

ولكن قل لي:

لماذا يملأ الدم

غرفتي وسريري ومكتبتي؟

ولماذا أحلم دائماً

بطفل متطاير الأشلاء

ودمية محطمة

ورصاصة تئز؟

غداً

عشرة آلاف غد
خرجتْ من حياتي البارحة
ومازلت أقول غداً..
غداً تأتي الغيمة
وتبلل القلب المعطوب
غداً يمد النهر أصابعه
ويربت على كتف عطشي

الغد يتحول إلى "اليوم"
اليوم يصير "البارحة"
وأنا أنتظر بلهفة
الغد الجديد.

"لا نحدث جلبة

في غرفة الموتى

نرفع الشمعة

ونراهم يمضون

أرفع صوتي قليلاً

على عتبة الباب

وأقول بضع كلمات

لأضيء دربهم"

- فيليب جاكوتيت -

قصائد عن الموتى

كم هي لذيذة

الموتى الذين ماتوا
في الحروب والأوبئة
في السجون والطرقات
الموتى الذين ماتوا
بالخنجر والرصاص والديناميت
بالفأس وحبل المشنقة
الموتى الجميلون
ذوو الأسنان البالية
والوجوه الناتئة
تذكروا وهم في قبورهم
ضوء القمر وخضرة المراعي
تذكروا أنهم لم يعيشوا كما ينبغي
لم ينتبهوا إلى الأصوات والألوان
تذكروا:
كم قبلة أضاعوا
كم ضوءاً أغمضوا عيونهم كيلا يروه
كم زهرة لم يزرعوا

كم كلمة طيبة لم يقولوها

الموتى عرفوا

ربما للمرة الأخيرة

كم هي لذيذة حياة الأحياء.

الخنجر

الرجل مات
الخنجر في القلب
والابتسامة بين الشفتين
الرجل مات
الرجل يتنزه في قبره
ينظر إلى الأعلى
ينظر إلى الأسفل
ينظر حوله
لا شيء سوى التراب
لا شيء سوى القبضة اللامعة
للخنجر في صدره
يبتسم الرجل الميت
ويربت على قبضة الخنجر
الخنجر صديقه الوحيد
الخنجر
ذكرى عزيزة من الذين في الأعلى.

فنان

لم يأسف على شيء
حينما أخذوه إلى المقبرة
لم يأسف سوى على المطرقة والإزميل
على الألوان والفرش
على اللوحات والتماثيل
وها هو الآن في القبر
هيكلاً عظمياً
ها هو يقوم جامعاً عظامه
سيصنع من سلاميات الأصابع
خواتم وأقراطاً
من الجمجمة دورقاً للنبيذ
من العمود الفقري صحوناً وأكواباً
وربما يصلح عظم الكتف
لصنع طائر.

ثوب أزرق

قبل أن ترتدي ثوبها الأزرق

قبل أن تزور خالتها

ماتت الفتاة الجميلة

الثوب مازال في الخزانة

والخالة في قريتها

والفتاة في القبر.

فأي شيء تحلم به الآن

لقد نظفت قبرها تماماً

لقد جمّلته كما ينبغي

فأي شيء تحلم به الآن

بعد أن سرحت شعرها بأصابعها

وقصت أظافرها بأسنانها

إنها تحلم.. إنها تحلم

بثوبها الأزرق

وزيارة خالتها.

الدرّاجة

الولد فوق الدراجة
سعيداً، ضاحكاً، منتشياً
يدور في فناء قبره

(حينما كان حيّاً
سقط عن الدراجة ومات)

الولد في فناء قبره
يدور بدراجة من عظام
سعيداً، ضاحكاً، منتشياً.

كتابة

بريشة من العظام
وحبر من الطمي
يكتب على جدران قبره
قصائد وروايات وقصصاً
قصائد عن الحب
وروايات عن القرى والمدن
وقصصاً عن الأرانب والعجول
إنه يكتب منذ أن مات
يكتب رغم أن أحداً لا يقرأ ما يكتبه
يكتب دونما توقّف
يكتب برغبة، باندفاع
لا يفعل شيئاً سوى الكتابة
يكتب
ربما
لأن الكتابة فعل حياة.

العاشق

يحفر العاشق بأظافره
تراب القبر
يحفر في بقايا التاريخ
يحفر منذ ألف عام
يحفر ليصل
يحفر دونما ألم
(الموتى لا يتألمون)
والعاشق الميت
يريد الوصول لمن يحب
وسيظل يحفر بالأظافر والأسنان
تراب القبر
سيظل يحفر إلى الأبد.

"لست أنا من يغني
بل الأزهار التي رأيتها
لست أنا من يبكي
إنه حبي الضائع"

- جاك بريفير -

حب

يدك

خمسُ قاراتٍ مغلقة

تنتظرُ أصابعَ يدَكِ الخمسة

خمسُ قاراتٍ مفتوحة تنتظرني

عندما أضمُّ أصابعَ يدَكِ الخمسة

***

يدُكِ في الشتاء

ترابٌ مبلّلٌ بالمطر

ويدُكِ في الصيف

سنبلةٌ في حقلٍ من الرماد

***

لا تفتحي يدَكِ.. لا تفتحي يدَكِ

فكلُّ أغاني العالم ستنطلقُ منها

لا تغلقي يدَكِ.. لا تغلقي يدَكِ

فكلُّ أغاني العالم ستلتجئُ إليها

***

يدُكِ الطريّةُ الدافئة

كقلبي
كيف أتركُها تضيعُ كطائرٍ
في غابةٍ مليئةٍ بالصيادين.

حتى الذئاب

عندما تكونين حزينةً
يحزنُ معكِ النهرُ والزورق
أشجارُ الصفصافِ والدوريُّ الرمادي
الجبلُ ومصباحُ الغرفة
الستائرُ وضوءُ الشمس
القلبُ في الصدر
والسمكُ في الأنهار
وحتى ذئابُ البراري المتوحشة
حتى الذئاب
تدفنُ رؤوسَها في الرمال وتبكي.

هكذا

مثلُ ساقيةِ ماءٍ تبحثُ عن مجرى

مثلُ نبعٍ ارتفعتْ عنهُ الصخور

مثلُ قدمٍ تتقدّمُ في طريقٍ لا نهاية له

مثلُ نايٍ وجدَ فماً

وشفتين أبصرتا شفتين

هكذا أفتحُ عينيَّ في الصباح

النافذة المفتوحة.. مفتوحة

والهواءُ يعبثُ ببقايا أوراق

ومازال في العمرِ بقيّة

للكآبة والضحك وصعود المرتفعات

وهكذا..

أضيفُ صباحاً جديداً في حصّالةِ حياتي

وأمضي.

المعجزة

أولُ كلمةٍ في الصباح
هي لكِ
وآخرُ كلمةٍ في المساء
هي لكِ أيضاً
وما بين صعود الشمس من خلف الجبل
وسقوطها في البحر الأزرق
ما بين الخيط الأبيض والأسود
كتبٌ وصحفٌ وأقلام
سجائر وأوقات مبدّدة
أصدقاء وآلام
وما بين الصباح والمساء
تطيرين كفراشة
وتتبدّدين كعطر
وأنا أغطُّ إصبعي في الماء
وأكتبُ على الورقة كلاماً أبيض
وانتظرُ المعجزة.

تساؤلات

ماذا سيحدثُ لي غداً
هل سأستيقظُ كنسرٍ
بجناحين هائلين ومنقارٍ أزرق
لأطيرَ إلى جبلٍ أو وادٍ أو بريّة؟
هل سأغني بفرحٍ وجنون؟
هل سأبكي وأعضُّ الوسادةَ بأسناني؟
من سأرى في الصباح
في الطريق اللولبي إلى عملي
رجلاً أم امرأة
طاغيةً أم ملاكاً؟
كيف سأبدو أمامكِ
حزيناً جداً أم سعيداً للغاية
هل ستشَبّهينني بأرنبٍ أبيض
أم بغرابٍ مريض؟
وهل ستكون يدُكِ حارةً أم باردة
وعيناكِ مطفأتين أم مشتعلتين؟
ما الأخبار التي سأقرأها؟
كم سيجارةٍ سأدخّن؟
كم طعنةٍ سأتلقّى؟
كم قبلةٍ سأقطفُ من شجرة الحياة؟
غداً، ماذا سيحدث لي؟

أقذفُ قطعةَ نقود في الهواء وأضحك.
إذا كان نسراً سأحبُّكِ
وإذا كانت كتابةً سأحبُّكِ أيضاً.

الحب

الحبُّ ليس غرفةً للإيجار
نتركها ببساطةٍ ونرحل
مخلفينَ الصور القديمة والغبار
وأعقاب السجائر
***
الحبُّ ليس أغنيةً جميلة
نتعلمها بغتةً، وننساها بغتة
كما ننسى، عندما نكبرُ،
الطفولة واللعب وحليب الأمهات
***
الحبُّ ليس حبةَ أسبرين
نتناولها عندما نشعرُ بالصداع
وليس نكتةً خفيفة
نتداولها في أوقات الضجر
***
الحبُّ ليس وردةً للزينة
ولا كأساً مكسورة لسلة المهملات
***
الحبُّ..
شهادةُ ولادة دائمة
نحملُها برأسٍ مرفوع
لنخترقَ شارعَ المذبحة.

أرجوك

اكتبْ لي شيئاً أرجوك
دعني أفهمكَ وتفهمني
اكتبْ لي شيئاً

اكتبْ لي بقلمِ الرصاص على ورقة
بإصبعك على راحة يدي
بعود كبريت على طلاء جدار
اكتبْ لي أرجوك

قلْ لي ما النفع أرجوك
من حلمٍ محاطٍ بالسواد
من فمٍ بلا شفاه
من سماءٍ بلا زرقة
من غابةٍ بلا أشجار
ومن حياةٍ بلا حرّية

قلْ لي شيئاً أرجوك
اكتبْ أو ارسمْ أو غنِّ
غنِّ عن الوطن الذي يتألّم.

دائماً I

أنا الهواءُ في رئتيكِ
والأزرارُ في قميصِكِ
أينما كنتِ ستجدينني
براحتي الدافئتين وقامتي القصيرة
أنتظرُكِ على الرصيف
أنتظرُكِ في العمل
أنتظرُكِ فوق السرير
واثقاً بأنكِ ستأتين
لأنني معك دائماً
أخلطُ أيامَك بالقبل ودمَك بالأزهار
أنظرُ إليكِ من سمائي كإله
وأرفعُ يديَّ طالباً مغفرتك
أنا صرخةُ الألم في حنجرتك
والأغنيةُ الجميلة التي تردّدين
أنظرُ إليك من البعيد
وأخافُ أن ألمسكِ
وحينما أمسكُ يدَكِ
لا أستطيعُ أن أبتعدَ عنكِ
حيوانُك المدللُ أنا
وهوايتك المفضلة
بلادُك النائية
ومستقبلُكِ القريب

بقدمي الحافيتين وقلبي المرتجف
أركضُ معكِ في الدروب الوعرة
أنا الغبارُ من حولك
والعرقُ الذي يسيلُ من مسامِ جسدِكِ
أينما نظرتِ سترينني
على الطاولة والكرسي والمدفأة
في المكتبة والحمام والباص
في الحقول والمصانع ومظاهرات الطلبة
أنمو كالأعشاب في شرفتِكِ المشمسة
وأتدلّى من سقفِ غرفتِكِ كالمصباح
بأصابعي العشرة أحتوي وجهَكِ
وبأصابعي العشرة أدفعُ المتاعب عنكِ
بأصابعي العشرة أعدّ لك القهوة
وبأصابعي العشرة أسندُكِ
إذ توشكين على السقوط
أنا الوردة في شعرك الأسود
والدبوس في عروة سترتك
عندما تنامين
أندسُّ بين أحلامك ولا أنام
أضحكُ وأبكي وأتألّمُ
وأحاربُ أعداءَك القساة
وفي الصباح
أتدحرجُ مع الماء على وجهك
وأجفّفُه بشفتي

أنا التفاحة التي قطفتِ

والأرض التي طُردتِ إليها

أنا اللوحة التي تزيّنين بها

جدار حياتك الأسود

والدم الذي يسيلُ منكِ

حينما يطلقون عليك الرصاص

يناديك النهارُ فألتفتُ

تبردين فيرتعشُ جسدي

بعيني تشاهدين الطيور

وبصوتِكِ أطالب بالحرّية

أما عندما تموتين

من الجوع أو الحب

فسأحاولُ ألا أموتَ معكِ

ذلك أنَّ الموتى بحاجةٍ لمنْ يذكرهم

ولنْ يفعلَ ذلك أحد سواي.

دائماً II

أنا وحشٌ
من العصور القديمة
سأدافعُ عنكِ
بالمخالب والأنياب

أنا حيوانٌ جريحٌ في غابة
تعالي والمسي جراحي بأناملكِ

أنا زهرةٌ متعبةٌ
في غابةٍ بعيدةٍ
سأتقدّمُ بهدوءٍ وأنامُ على صدركِ

أنا رجلٌ خاطئٌ
ها أنذا أرفعُ يدي
طالباً مغفرتكِ

أنا طفلٌ لم أحفظْ دروسي
تعالي علميني
كيف أجمعُ برتقالةً وسبعَ تفاحات

هناك حقيقةٌ واحدة
بدأتُ أدركها

هي أنَّ حبّي
لا تسعُهُ هذه الأرض الصغيرة

لو كان حبّي طيوراً
هلِ تسعُها السماء؟
لو كان حبّي سمكاً
هل يسعُهُ البحرُ؟
لو كان حبّي أشجاراً
هل تسعُها براري الدنيا؟

أعرفُ أنَّ الحبَّ
بسيطٌ كالزنابق
سهلٌ كمطرِ الربيع
واضحٌ كسماءٍ زرقاء
لكني أتساءلُ:
لماذا يخافُ الكثيرون
من الزنابق
ومطرِ الربيع
والسماء الزرقاء

تعالي لنلغمْ
صقيعَ العالم
بديناميت القبلات.

مشاهد يومية

١- المكتب

كلَّ صباح
حينما أفتحُ بابَ غرفتكِ بهدوءٍ كاذب
محاولاً إخفاءَ ارتجاف أصابعي وشراييني
كلَّ صباح
حينما أراكِ تعبثين بالبطاقات البيضاء
بالصحف والمجلات
بالزمن والقهوة
كلَّ صباح
أتمنّى
حينما أدخلُ غرفتكِ بهدوءٍ كاذب
أن أكونَ قلماً أو ممحاة
صحيفةً أو فنجان قهوة
بين أصابعكِ التي تعبثُ بالأشياء
كما يعبثُ عازفٌ مبتدئ بمفاتيح البيانو.

٢- الطريق

في الطريق حينما أكونُ معك
في الخريف الذي طال
حيث تشتعلُ الشمسُ وتنطفئُ
بطريقةٍ غريبةٍ
بطريقةٍ أخاذة

في الطريق، الطريق
حيث تسقطُ ورقةُ شجرٍ صفراء
فوق شعرِكِ الأسود المشتعل
أقول لكِ: اقتربي
لقد وقعَ طائرٌ أصفر فوق رأسك
وها هو ينقرُ حبوبَ العدس
طائر أصفر صغير يغني
فوق أغصان شعرِكِ العزيز
شعرك الذي كقطيعٍ من الماعز
يرعى في برّية القلب.

٣- البيت

حذاؤُكِ في الزاوية
ثوبُكِ فوق الكرسي
وفوق المنضدة دبابيس شعرِكِ
خاتمك الذهبي
وحقيبتك السوداء
وأنتِ معي
عاريةٌ وخائفة
- ممَّ تخافين؟
من قنبلةٍ تسقطُ فوق زهرة!
من زهرةٍ تحت عجلات قطار!
عاريةٌ وترتجفين
- ممَّ ترتجفين؟

من بركانٍ يتفجّرُ!

من رغبةٍ تئنُّ!

عاريةٌ وتلتصقين بي

سأتركُ النافذةَ مفتوحة

انظري.. انظري

ها هي السماء الزرقاء

وها هي قطةٌ بيضاء ورمادية

تتنزّهُ فوق حافة الجدار المقابل للنافذة

وها نحنُ

نقتسمُ رغيفَ الحب

نأكلُ من صحنٍ واحد

بملعقةٍ واحدة

وكلّ ما نملكُه وما لا نملكُه

سنقتسمهُ أيضاً

تماماً

كرفيقين في رحلة طويلة.

اثنان

كانا اثنين

يمشيان معاً

في الشوارع المهجورة

منهُ تفوحُ رائحةَ التبغ

ومنها تتساقطُ أوراقُ الليمون

وعند المنعطف

كنجمتين

سقطا

***

كانا اثنين

أحدهما يغنّي

والآخر يحبُّ الإصغاء

فجأةً توقّفَ عن هذا

وتوقّفتْ عن ذاك

عندما انكسرَ المزمار

***

كانا اثنين

أهدتْهُ قلماً للكتابة

وأهداها حذاءً خفيفاً للنزهات

بالقلم كتبَ لها: "وداْعاً"

وبالحذاءِ الخفيف جاءَتْ لتودّعَهُ

اعتياد

أعددتُ لكِ فنجانَ قهوة
فنجانَ قهوةٍ ساخنة
القهوةُ بردَتْ
وما جئتِ

وضعتُ وردةً في كأسِ ماء
وردةً حمراء حمراء
الوردةُ ذبلتْ
وما أتيتِ

كلَّ يوم أفتحُ النافذةَ
فأرى الأوراقَ تتساقطُ
والمطرَ ينهمرُ
والطيورَ تئنُّ
ولا أراكِ

لقد اعتدتُ
أنْ أعدَّ القهوةَ كل صباح لاثنين
أنْ أضعَ وردةً حمراء في كأس ماء
أنْ أفتحَ النوافذ للريح والمطر والشمس
لقد اعتدتُ
أنْ أنتظركِ أيتها الثورة.

قصائد بخط يده

١

قصائد جديدة غير منشورة لرياض صالح الحسين

العنوان ...
الأشكال الاجتماعي
١٩٨٠.

لا شكّ بذلك يا ديكارت!

لا أشكّ مطلقاً
على الأقل عندما أكون حزيناً
بأن الخشب يطفو على سطح الماء
والقطط تتغذى بالفئران
والأشجار تزهر في الربيع.

لا أشكّ مطلقاً
بالسكين التي تقطع اللحم
والمطر الذي يقطع العطش
والأغنية الذي يقطع الطمأنينة.

لا أشكّ مطلقاً
كما يعلم الجميع
بأن واحداً زائد واحد يساوي اثنين
وأن قليلاً من الملح والخيار والبندورة والبقدونس المفروم
يساوي سلطة.

ولكن ما أشكّ فيه
يا ديكارت المجنون
بأن الكذبة والكذبة
ذبابة فوق بناية
ومستنقعاً قرب نهر..
يساوي ثورة!

-٠-

البيضاء

-١-

كوحش كبير، كبير
بأنياب خضراء
ومخالب ممطرة
سأخرج إلى العالم..
وحيث تلمع عيون الأطفال وأجنحة النوارس
سأجلس مع القبلة قرب الينابيع
وأختبئ مع الفلاحات بين سنابل القمح
وأقول: أحبك!

-٢-

في هذه اللحظة تماماً
العالم قلب كبير يدق بقوة
العالم زهرة لوتس في شعر فتاة صغيرة
العالم هرّة بيضاء تموء بلطف وهي تشرب الحليب
العالم أغنية مسافرة في قطار مجهول
العالم يمامة..
في منقارها بطاقة بريدية:
إنني أحبك.

-٣-

سألعب مع الأطفال بالحصى والأوراق الملونة
سأقيم البيوت من رمال الصحارى والشواطئ المبللة
سأقول للصخرة: لتبتسم
للأغصان: لتضحك

للتراب : لنرقص
للوسادة : لنتنفس
للجبال : لنغني
للموجة : لنبدأ
للأحياء : لننتشر
للأرقام : لنكبر
للحروف : لنتسع
للفصول : لنتبدل
للنجوم : لنمطر
ولكِ أيتها المرأة
سأقول ، أحبكِ
أحبكِ كلما قطفتُ وردة
وكلما قطفتني السكاكين !

-٤-
السبت ، الأحد ، الاثنين ، الثلاثاء ،
الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ..
أنا أحبكِ
الشتاء ، الربيع ، الصيف ، الخريف ..
أنا أحبكِ
السابعة صباحاً ، السابعة مساءً ،
الثانية بعد منتصف الليل ..
أنا أحبكِ
أحبكِ هنا وأحبكِ هناك
في الضباب والأودية والمنازل والحقول
على الأرصفة وحبال المشانق
بين المصانع والجرارات وبنادق الاحتلال
تحت شمس الله وتحت قنابل الامبريالية ..
أنا أحبكِ !

-٥-
سأبني عشاً بثلاث نوافذ وأربعة أبواب

سأزوّج البحر من فتاة النجوم
سأطلق غابة على الصحراء الكبرى
سأقلد الريح وسأأنسن البرتقال
سأطفئ الجحيم بقطرة من الماء
سأخرج شجرة من فم حجر
وسأقول لك : أنا أحبك !

-٦-

لا تحجزوا لي مقعداً في طائرة مخطوفة
ولا زنزانة في بلد بعيد
ولا صوتاً في مجاعة عالمية
لا تغلقوا النوافذ والأبواب والجدران والدروب الطويلة
لا توحدوا البحر والحدود والسماء العالية
لا تتركوا أوديب يقتل أباه
ولا هاملت يقتل نفسه
لا تصنعوا التوابيت
ولا تدمروا السفن
لا تأخذوني إلى عام ٢٠٠٠
أو عام ١٦٠٥
أو عام ٣٧ ق.م
أريد أن أظل هنا
في ٢٤ تموز ١٩٧٩
بفم مليء باليانسون
وقلب مزروع بالقطن
وأن يظل العالم ٢٤ تموز دائم
فهذا يعني بأنني أحبك !..

٥/١١ ٢/١١

غرفة صغيرة ضيّقة ولاشيئ غير ذلك

غرفة صغيرة صالحة للحياة
غرفة صغيرة وضيقة صالحة للموت
غرفة صغيرة ورطبة لاتصلح لشيئ
غرفة صغيرة :
امرأة تقشّر البطاطا واليأس
عامل باطون لاينام أبداً
بنت تبكي كثيراً بدون سبب
وأنا ولد مشاكس وغير لئيم
لديّ كتب وأصدقاء
ولاشيئ غير ذلك .

ومنذ أن ولدت بلا وطن
ومنذ أن أصبح الوطن قبراً
ومنذ أن أصبح القبر كتاباً
ومنذ أن أصبح الكتاب معتقلاً
ومنذ أن أصبح المعتقل حلماً
ومنذ أن أصبح الحلم وطناً
بحثت عن غرفة صغيرة وضيقة
أستطيع فيها التنفس بحرية .

إنني أتنفس بحرية
في غرفة صغيرة وضيقة
أخلع ثيابي وأنام
أخلع فمي وأتكلم
أخلع قدميّ وأقوم بنزهة تحت غبار السرير
مفتشاً عن بقايا أطعمة وقطط تحب المداعبة

على الرفوف في الغرفة كتب وأصدقاء
وهناك أيضاً حزمة جافة من البرسيم
صورة لغيفارا ولوحة سوداء لمنذر مصري
عندما أجوع ألتهم الكتب وأقول للأصدقاء
/أيها الأصدقاء، تعالوا لنتحاور../
وأصدقائي كثيرون
الذين يحبونني لايتركون لي فرصة للموت
والذين يكرهونني لايتركون لي فرصة للحياة

وغداً على الأرجح
سألتهم الأصدقاء كما التهمت الكتب
وقرارات الأمم المتحدة

وغداً، على الأرجح
سأكف عن الحلم مثلما كفت الآنسة (سين)
يدها عن شؤون قلبي

وغداً، على الأرجح
سأترك للغرفة تأسيس حياتي
بجدرانها الخمسة المدماة
ونافذتها الوحيدة المشرعة.

في غرفة صغيرة وضيقة صالحة للبكاء
في غرفة صغيرة وضيقة صالحة للحب
في غرفة صغيرة وضيقة صالحة للمؤامرات
لم أستطع أن أتآمر على أحد
لم أستطع أن أفعل شيئاً..
في غرفة صغيرة وضيقة صالحة للكتابة
لم أستطع إلا الكتابة ووصيتي الأخيرة
الغرفة الصغيرة الضيقة الممددة كجثة
فوق سرير الأرض

٧/

قابلة مثلي للتشريح

ومثلي قابلة للإبادة .

في الغرفة الصغيرة الضيقة

أقرأ الصحف والمذابح

في الغرفة الصغيرة الضيقة

أهوي كعاصفة وأغرد كسنبلة

أنا في الغرفة الصغيرة الضيقة نهر مكسور

وأحياناً أمة مضطهدة .

- أين ذهبت المرأة ؟

x لتموت في الغرفة الصغيرة الضيقة

- أين قررت الحزن ؟

x في الغرفة الصغيرة الضيقة

- كم عمرك ؟

x غرفة صغيرة وضيقة

- ما هي الأرض ؟

x غرفة صغيرة وضيقة !

اليوم صباحاً وكانسان مقتول

لا يعرف تاريخ ولادته ولا يملك شهادة الوفاة

أغلقت عينيّ النافذة

وتركت الغرفة الصغيرة الضيقة

تفيض حتى حافتها بالأمراض

اليوم صباحاً

قلت سأفتش عن ناكهة لم تلمسها يد

وعن ريح لم تذهب بها صاحبة إلى السماء

ذهبت إلى الأشجار ، وما وجدت أحداً

إلى الينابيع ، وما وجدت أحداً

٨

إلى الصخور ، وما وجدت أحداً

إلى الحيوانات ، وما وجدت أحداً

ذهبت إلى المطارات والشوارع ومؤسسات الأيتام

فحسبوني شحاذاً ووضعوا في كفيّ النقود ..

اليوم مساء وحصان مقطوع الرأس

عدت إلى الغرفة

الغرفة الصغيرة الضيقة

وبلطة ضخمة من الصراخ تنمو تحت أظافري !

شهادات

ما أقصرَ المسافةَ وما أبعدَها!

عبد الكريم كاصد

ما أكثر التفاصيل التي تحضرني حين أتذكرُ رياض!

لكنَّ تفصيلين لن أنساهما أبداً.

لا لأنهما الأبرز ولا لغرابتهما، بل لما رافقهما من فرحٍ هو نقيض طبيعة هذين التفصيلين.. فرحٍ سأشير إليه لأنه هو الذي يعنيني الآن ويستوقفني ويلحّ عليّ.

حين قرأتُ، لأول مرة، قصائد رياض عن الموتى، التي ضمّها ديوانه (وعلٌ في غابة) فاجأني فرحه هذا.. فرحه الذي لم يعد فيه الموت موتاً، ولا الحياة حياةً، لأنّ ثمة ما يتجاوزهما إلى عالم آخر هو ليس حياة ولا موتاً، ولا هو ما بين بين، فالقبر لم يعد مكاناً حائلاً دون فرحٍ، والموت لم يعد سدّاً أمام تدفق حياةٍ، كما أننا لا نرى أثراً لحزن قد يطالعنا في الحياة حتى وهي في أوج فرحها وتدفقها.

في قصيدته (الدراجة) يقول:

الولد فوق الدراجة

سعيداً، ضاحكاً، منتشياً

يدور في فناء قبره

(حين كان حيّاً

سقط عن الدراجة ومات)

الولد في فناء قبره
يدور بدراجةٍ من عظام
سعيداً، ضاحكاً، منتشياً

لم يمت الطفل وإن مات.
ولم يعش الطفل وإنْ عاش ثانيةً.

حياةٌ وموتٌ معلقان، خارجان على ما اعتدنا عليه من تصورٍ أو أعراف.

من أين ينبع فرحه هذا؟ أمن تحديقه الطويل في الحياة نفسها ليكتشف جذرها في الموت؟ أم من تحديقه الطويل في الموت ليكتشف جذره المتأصل في الحياة؟

لماذا يعود الموتى إلى الحياة؟

لماذا يعودون إليها وهم في موتهم ذاته، لم يغادروه إلى فردوس أرضي ولا سماويّ، بل يمكثون حيث هم، وحيدين مستأنسين بوحدتهم، بعيدين عن الوحشة والحزن اللذين يرافقان الوحدة عادةً في الحياة... مكرّرين أفعالهم بنشوة المحبّ المأخوذ بحبّهِ أبداً:

الولد في فناء قبره
يدور بدراجةٍ من عظام
سعيداً، ضاحكاً، منتشياً

إنّ من يجد الفرح في القبر أيغشاه الحزن في خارجه؟ كان رياض متوجاً بالفرح وهو يعبر أحزانه.. فرح الطفل والشاعر معاً، متجوّلاً بين

حياةٍ وموت، بين فرحٍ وحزن، كما يحلو له، لا عامداً وكأنّ هذا سجيةٌ فيه، كميّتهِ صاحب الدراجة سعيداً ضاحكاً منتشياً.

قبل موته ربما بساعة أو أقلّ حملتُ نفسي وذهبت دون أن أتخيل أنني سأرى الموت أو أصادفه في طريقٍ أو عند سرير في مستشفى أبداً، فرياض كأبطاله خارج الحياة والموت، في تلك المنطقة الأثيرية حيث الأضداد لا وجود لها.. فرحٌ مطلق لا تشوبه شائبة من حزنٍ أبداً.. أبداً.

كان رياض في سريره في غيبوبةٍ وكانت أمّهُ جالسة على حافة السرير الفارغ المجاور لسريره مرتدية السواد كعادة أغلب أمهاتنا ولكنها، مثلي، لم تكن تتخيل أن ابنها النائم في سريره يمكن أن يغادرها بعد ساعة أو أقلّ، وهي لاطمئنانها، ربما، كانت تُحدّث، عني وعن رياض، امرأةً زائرةً تجلس إلى جوارها أبدت استغرابها من يقظة رياض المفاجئة حين دنوتُ من سريره وقد رآني (لا.. لم يرني، فهل كانت يقظته بفعل حدسٍ خارق؟). سمعتها تقول لها: إنه صديقهُ، وكانت تعني بنبرتها أنه صديقه الحميم، ربما أضافت كلمة أخ.. لا أتذكر تماماً.

كانت انتفاضتُهُ وهو ينهض من السرير ليعانقني مفاجأةً، لحظةً نادرةً لا تتوقعها الأم التي أفضت إليّ فيما بعد، عند مغادرتي، أنه لم يستيقظ لحديثها معه. (كلما تذكرتُ ذلك أشعر بحزن شديد). لم تكن لحظة في الحقيقة وقد امتدت إلى الموت أو امتد إليها الموت، وإنما هي لحظة أبدية لا تعود إلى الحياة مطلقاً.. لحظة هي المحبة ذاتها.. الحياة ذاتها.. والموت ذاته.

كانت الأم منكسرة مهمومة تحدّث المرأة الجالسة جوارها وتعبّرُ لها عن محبتها أيضاً، وهي ترى المحبة مجسدةً بين صديقين.

لم يكن رياض يتحدّث.. كان يغمغم بمحبته كالطفل وطيفُ ابتسامةٍ يعلو وجههُ الضاربَ إلى حمرةٍ خفيفةٍ في أجزاء منه، فهو لم يكن بحاجة

إلى حديث ولا كتابة ولم يكن يستطيعهما.. كنت أشعر بوحشة لأنّ المكان بدا لي وكأنه مهجور فأنا لم أرَ طبيباً جنبه، ولا ممرضةً وفي كلّ الأحوال لم أكن أتخيل موته.

غادرت المستشفى وبعد مغادرتي بدقائق، ربما، كان هو الذي غادرني.

في صباح اليوم التالي رافقته إلى قريته.. إلى مقبرتها البعيدة، ولكن دون أن أستطيع معانقته، أو يستطيع معانقتي. كان معي من أصدقائي العراقيين: هيفاء أحمد، بدور زكي، مهدي محمد علي، وعبد الله الصخي، ومن أصدقائي السوريين أتذكر: محمد كامل الخطيب وبندر عبدالحميد.

ما أقصرَ المسافة التي قطعها بين الحياة والموت!

وما أبعدها!

ما أبعدها يا رياض الصالح الحسين!

رياض الصالح الحسين
.. خبز وزيتون وسياط(*)

فرج بيرقدار

ليس رثاءً، ولا تمجيداً، ولا عَوْداً متسولاً على بدءٍ كريم، بل هو الحبُّ هارباً أو ملتجئاً إلى ما مضى وما سيأتي من ذكريات، وربما هو العرفان بالجميل وبما لم يكن جميلاً حتى، وقد لا يكون الأمرُ أو الخمرُ سوى محاولة للتوازن على نصلٍ يمتد ولا يصل، وما من أحد في جيلنا، أعني جيل شعراء السبعينيات، استطاع ذلك التوازن شاهداً وشهيداً، أو قولاً وفعلاً، أو شعراً وإيماناً وكفراً، كما أحبُّنا إلينا، أعني الشاعر رياض الصالح الحسين.

لن أبدأ من حيث انتهى رياض، ذلك لأنه، في أحد وجوه الحقيقة، لم ينتهِ.

كما لن أبدأ على النحو الذي بدأ فيه، إذ له البداءة، وأنا أحد الذين لجلجتهم ظروفهم الحجرية، وتأخروا كثيراً.

مع ذلك أشعر أني لا أزال أوفرَ رملاً وسراباً من تلك الصحارى التي كنا صعاليكها، ولا نهايات في داخلي لما يترامى في ظنون تلك الصحارى من واحات وحُداء وصهيلٍ وترحال.

أنا الآن في أقصى الحزن، أعني على تخوم أقصى الشمال، ورياض في أقصى الحنين، أعني على تخوم أقصى الجنوب.

(*) المقالة في الذكرى السابعة والعشرين لرحيل رياض الصالح الحسين، وقد نُشِرت في جريدة المستقبل- ملحق نوافذ في ٢٠ كانون الأول ٢٠٠٩.

للجهات رموز أحدس بها وإن كنت لا أفهمها، وآوي إليها وإن كانت تثير الريبة في داخلي.

تعلّمتُ أهمية الحدس من شاعرية رياض، وتعلّمت من أساطيره اليومية أن اليقين يصلّي على قِبلة الشك، حتى لكأنّ يقيني بسوريا هو الشك الأكبر في حياتي!

لقد أحبها رياض كاملةً وأنصافاً وأرباعاً، كما يعرف الجميع، وتنكّرت له فلم تنصفه ولم تربِّعه على غير النعش، كما لا يعرف إلا قلة ممن قبضوا أو يقبضون على الجمر.

كان يأتي رياض باسماً أو ضاحكاً دائماً، أعني غالباً، ويمضي على النحو نفسه.

أستخدم "كان" رغم معرفتي بأنه فعلٌ ناقصٌ مرتين، مرة بذاته ومرة بسبب رياض.

كم تساءلتُ إن كان رياض مبتسماً حين دخل في ذلك الكمين الذي نصبه له الموت طمعاً في الحصول على شرف استثنائي لا سبيل إليه في الحالات الاعتيادية.

لم أتمكن حينها من رؤيته أو وداعه. كنت قد أصبحت مطلوباً، أو متخفياً على نحو احترازيّ في البداية، وملعونٍ في النهاية.

حسناً.. رافقتْه قصائده وضحكاته وملائكة حزن محبيه.

ولكني كنت أنتظره ولا أزال.

يعرف رياض كيف يأتي، حين يريد، متكئاً على قصائده، وحالي حال الكثيرين ممن تتكئ عليهم قصائدهم وهم يواربون الخطى حتى في الذهاب.

ما أكثر ما كان يحبُّ ويشرب ويضحك ويرقص، ولكنه كان يعرف

كيف ومتى يحزن أو يبكي أو يصمت، وكان يزعجه أنني أتظاهر أو أبدو على النقيض منه.

ألهذا ذهبت قصائده وحياته إلى نهاياتها عبر أقصر الطرق، وتلهلهتْ سبلُ حياتي في تعرجاتها وعروجاتها الشيطانية هروباً وسجوناً ومنافي؟!

يا ما ناكفته في الحب والسياسة وشعر التفعيلة وحتى في تجربة اعتقاله.

ويا ما سامحني مقابل ابتسامة أو نظرةٍ آسفة أو سؤال عن حبه الجديد أو نخب أو عناق.

أجل.. كان رياض أكثرنا صفاء وجرياناً وقابلية للغفران. إنه يشبه شعره في الكثير من الملامح.

كما كان أكثرنا موهبة ونباهة في اقتناص ما يلائمه من الشعر والحياة، إذ تمكّن خلال عمر قصير بالمعنى الزمني والشعري أن يجد أسلوبه ويكمل مشروع قصيدته وحياته على أجمل وأوجع نحو ممكن.

ما العلاقة بين الوجع والجمال؟!

لا يقبل رياض أن يجيب الآن، رغم أنه واحد من شعراء قلائل يصعب على المرء الفصل فيما بين عوالمهم، الشخصية والوجودية والجمالية.

ألهذا لم يستطع رياض تحمّلَ عبء الوجود والبشاعة والقمع والاعتقال والأصدقاء، وأخيراً نقص الحسّ أو الشرف المهني الطبي؟!

قرأت كثيراً مما كُتِبَ عن رياض وتفاصيل شعره وحياته، ولكني للأسف لم أقرأ أي شيء عن اعتقاله مثلاً!

أجل.. اعتُقِلَ رياض بسبب كرّاس أدبيّ كان يصدره، في النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، مجموعة من الكتّاب الشباب،

منهم جميل حتمل "ما أقربه إلى رياض الآن" ووائل السواح وحسان عزت وبشير البكر وخالد درويش "اعتقل في نفس الوقت مع رياض بسبب الكرّاس" وفاديا لاذقاني وموفق سليمان وكاتب هذه السطور الذي اعتقل لأول مرة بسبب الكرّاس، بعد رياض وخالد، وليس مهماً الآن أنه اعتُقِلَ لاحقاً لأسباب أخرى.

إذا كان الوقت مساء الآن، فليس في وسعي سوى القول:

مساء الخير يا رياض

وإذا كان الوقت صباحاً، فإني آمل أن يقبل مني تحيةَ:

صبايا الخير يا رياض.

هل كان اعتقاله سراً خطيراً؟

تؤكد الوقائع عبر العقود الأخيرة من تاريخ سوريا أن الأمر عادي أو مألوف أو متوقع.

لماذا إذن تحاشت وتتحاشى الأقلام النقدية، المجرّدة أوقات السلم والمغمدة أيام الشدائد، الحديث عن اعتقاله بسبب ذلك الكراس وتعرضّه للتنكيل والإهانات ولاختبارات قاسية بغية التأكد من صممه وتعثّر نطقه.

أليس اعتقاله جزءاً من تجربته في الحياة وله انعكاساته في شعره؟

ربما كان أولئك الكتّاب والنقاد معذورين في ذلك، إذ لا سلطان لبعض الناس على الخوف، وفي هذه الحالة لا سلطان للحقائق عليهم.

وإذا كان لهم عذرهم في ذلك، فما هو عذرهم في عدم إنصاف تطورات تجربة رياض الشعرية في جميع مراحلها، وصولاً إلى الختام في إكمال تأسيس وامتلاك طريقته الشعرية، وبالتالي قصيدته الخاصة التي لم تمّحِ روحها وملامحها رغم مرور ما يمكن أن نطلق عليه تسمية أجيال؟!

أهي حالة تنزيهٍ اعتذاري يشعر بوطأة الإحساس بالذنب والتقصير والعجز، ويأمل بالمصالحة مع ضمير اضطر إلى النوم طويلاً وصحا على ما ليس خطراً بعد موت رياض؟!

لا بأس أن يصبح الحديث عن رياض، بعد موته، مشاعاً لكل من أراد تجريب قلمه أو تطهيره أو تكريمه بالكتابة عن رهافة وعمق وألفة وجمال ودهشة وإشارة وبساطة شعره، وأنه علامة فارقة في جيله وفيما بعد، ولكن ماذا عن سيزيفية أو وعورة الطرق التي اختارها أو اضطر إليها رياض؟

هل لنا أن نتخيّل أيَّ تحدٍّ أقدم عليه بعد فقده السمع، وبالتالي توقفه عن المدرسة، وهو في الثالثة عشرة؟!

غالباً ما يجري الحديث عنه كما لو أنه وِلد شاعراً هكذا ببساطة، أو بدون جهد وبحث ودأب ومعاناة، أو كما لو كان طريقه في الوصول إلى قصيدته وردياً أو سهلاً أو قادماً من جهة الحظ والمصادفة أو الموهبة وحدها!

نادرة هي تلك الكتابات التي تحدثت عن تلك المحطات اللاهثة والقلقة، المرتابة والمرتبكة والمتوثبة والمغامِرة في تجربة رياض مع الحياة بصورة عامة، والشعر بصورة خاصة، ومع قصيدة التفعيلة على وجه أخصّ، وقد كان ذلك ميدان نقاش معقد وطويل بيننا في هيئة تحرير الكرّاس الأدبي.

كنت أنا، المقيّد بالأصول والدراسة المريرة في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، أحد المناقشين أو المشاكسين أو المناكفين لرياض بشأن طريقته في الكتابة الشعرية. كان يحاول وأحياناً يصرّ على كتابة قصيدة التفعيلة، وكنت أصرّ على أنه لم يُخلق لها وأنها لا تناسب روحه وشخصه وميوله وموهبته.

غير أن رياض أقدم على نشر قصيدة "سطور من كرّاسة الحطابين الأشرار" في مجموعته الأولى، وهي قصيدة مكتوبة على التفعيلة ، كما قرر الاحتفاظ بالمقطع رقم ٣ من قصيدة "خراب الدورة الدموية" موزوناً، وكذلك بالمقطع رقم ٤ من قصيدة أساطير، وهي القصيدة الأخيرة في مجموعته الأولى "خراب الدورة الدموية".

القصيدة الأخيرة في مجموعته الأولى هي التي أرهصت بعنوان مجموعته الثانية "أساطير يومية"، التي افتتحها بقصيدة طويلة على التفعيلة تحت عنوان "حرب حرب حرب"، ومزج في إحدى القصائد المنشورة في هذه المجموعة تحت عنوان "هيلين"، ومهداة إلى ن. أبو عفش، بين النثر والتفعيلة، ربما كنوع من الوفاء والمحاكاة لنزيه.

ورغم قناعتي بأن نضج أو اكتمال خيارات رياض الشعرية، إنما جاء في مجموعته الثالثة "بسيط كالماء واضح كطلقة مسدس"، إلا أن رياض بقي يحاول مع قصيدة التفعيلة، فضمّن مجموعته الرابعة والأخيرة "وعل في الغابة"، التي أعدّها قبل موته، أربع القصائد الأولى على التفعيلة، أعني القصائد المعنونة ب "غرفة الشاعر" وهي أول قصيدة في المجموعة، تلتها قصيدة "غرفة المحارب" ثم "غرفة السائح" ثم "غرفة مهدي محمد علي".

أين أنت الآن يا مهدي محمد علي؟!

وفي نهاية أعمال رياض الشعرية الكاملة التي نشرها وفاءُ الشاعر خلف علي الخلف على موقع جدار، ترد ثلاث قصائد لرياض، لم تنشر ورقياً، بينها قصيدة بعنوان "العاشق القادم من البحر الخامس" مكتوبة كاملة على التفعيلة.

لا أدري ما هي دوافع رياض في محاولات تقحّمه لشعر التفعيلة، خاصة بعد أن وجد روحه وخصوصيته أو ميزاته الإبداعية في قصيدته التي أكملها وأكمل حياته معها!

ذلك يحتاج إلى ناقد حقيقي، لا إلى صديق أو مجرد شاعر مثلي.

مضى رياض وعوّضنا عن غيابه بأكثر من طريقة، من بينها قصائده التي لم يغلق الزمن دونها النوافذ ولا الأبواب.

أمّا وقد انتهى بعض الأمر الآن، فإن المشكلة هي كيف لنا أن نعوِّض عما لا يقبل التعويض؟!

أليس رياض جديراً بأن يكون سارية بالمعنى الإبداعي والحياتي اليومي لأجيال راهنة وقادمة؟

ألا تشكل إنجازات تجربته الشعرية، رغم حياته القصيرة العاصفة، حافزاً وملهماً لكثيرين ممن يعتقدون أن ثمانية وعشرين عاماً، هي عمر رياض، لا تكفي لأكثر من إكمال الدراسة وإنهاء الخدمة الإلزامية؟!

بل لماذا لا تكون تجربة رياض الشعرية والحياتية جزءاً من منهاج مدرسي على سبيل المثال، أو جزءاً من سيرة أدبية معممة وطنياً، ومحفوفة بما يليق بها من أضواء وأجنحة على شحّ الفضاء وانحنائه؟!

تلك أسئلة لهتك البداهات والأسباب أكثر منها بحثاً عن أجوبة.

لكأنني أحاول أن أتحايل أو أتحامل على نفسي، فمن هو مثلي يرى أن رياض لم يمضِ إلا مجازاً، ذلك لأنه كما أعرفه تماماً، وكما يعرفه كثير منكم، أو كما هو عوّدنا، يذهب فقط ليعود.

ألا ترونه الآن بيننا وهو يجاهد في قراءة قصيدته "سورية":

يا سورية الجميلة السعيدة

كمدفأة في كانون

يا سورية التعيسة

كعظمة بين أسنان كلب

يا سورية القاسية

كمشرط في يد جرّاح

نحن أبناؤك الطيبون

الذين أكلنا خبزك وزيتونك وسياطك

أبداً سنقودك إلى الينابيع

أبداً سنجفّف دمك بأصابعنا الخضراء

ودموعك بشفاهنا اليابسة

أبداً سنشقّ أمامك الدروب

ولن نتركك تضيعين يا سورية

كأغنية في صحراء.

* * *

يا إلهي!

لماذا إذن يتذكرون حديثه عن أنه أكل من خبز سورية وزيتونها، وينسون السياط؟!

حكاية الشاعر رياض الصالح الحسين

هاشم شفيق

كثيرون هم الذين تناولوا حياة الشاعر الراحل رياض الصالح الحسين بالتقريظ وكيل المحاسن لسيرته، وهذا شيء جميل أن يبادر به الأصدقاء، وبخاصة لشاعر بحجم رياض مضى شاباً في نهاية العشرينيات وترك إرثاً فريداً ونادراً من القصائد المشغولة بحرفة وتقنية عاليتين، وقد أنجز كل ذلك بعمر قصير، وإنه هنا يذكرني بالشاعر الإنكليزي جون كيتس الذي أطبقت شهرته الآفاق وهو لم يزل في سنّ صغيرة وظلت على مدار عقود بعد وفاته، تعاد طباعة أعماله الشعرية ودواوينه المعدودة حتى هذه اللحظة..

لكن اللافت في تلك الكتابات التمجيدية أنها كانت تعكس رؤية ناقصة ومعرفة غير دقيقة ودراية لم تكن ملمة بحياة وتفاصيل الشاعر وسويعاته الأخيرة، كيف مضى في مرضه؟ وكيف عاش أيامه الأخيرة في المستشفى؟ وهل كان هناك لفيف من الأهل والأصدقاء حوله؟ وهل وجد رياض ثمة اهتماماً معيناً به من المعنيين بالثقافة ومسؤوليها وهو يعاني مرضه ومأساته اليومية في مستشفى "المواساة" في دمشق؟

الحقيقة التي أعرفها عن كثب ومعايشة شبه يومية للشاعر تقول غير ذلك. في تلك الأيام العصيبة من معاناة الشاعر المأسوية وهو يواجه مصيره الحزين، انفض الجميع عن الشاعر، وخصوصاً الصحاب، وهم كثر ممن كان يلتقيهم يومياً في مقهى "اللاتيرنا" و"الهافانا" و"الروضة" أو في حانة "الريّس" و"فريدي" أو في غرفة الشاعر بندر عبد الحميد.

لقد تهرّب الكل تقريباً لحظة سقوطه بمرض الفشل الكلوي، حتى أهله لم أرَ واحداً منهم، والأصدقاء الذين كتبوا عنه فيما بعد بحس الخبير والعارف بتفاصيل تلك الأيام واللحظات الأخيرة للشاعر، حتى المرأة التي كان يحبها لم تأت لرؤيته. لقد كان وحيداً في سريره كالسياب في لحظة سقوطه، كرامبو أثناء عودته إلى شارفيل ودخوله المستشفى وحيداً ما خلا شقيقته ايزابيل. رياض دخل المستشفى وحيداً، دون عون من أحد، ما خلا صديقه الشاعر البصري مهدي محمد علي وكاتب هذه السطور..

لقد ظللنا الشاعر مهدي محمد علي وأنا قربه بالتناوب كخفراء، ليلة لمهدي محمد علي، الذي رحل فيما بعد بمرض تشمع الكبد وهو في مطلع الستينيات من عمره في حلب، بعيد انطلاق الثورة السورية بشهور، وليلة لي، نتقاسم من خلالها السهر، وتمضية الوقت في قراءة الشعر لشعراء يحبهم رياض، أو نحبهم مثله كبابلو نيرودا وبول ايلوار وأراغون وغيرهم، أو تزجية الوقت من خلال المداراة والمواساة والطمأنة، بطرق التفكه والنادرة والمُلح التي كنا نستحضرها، لنسخر عبرها من الحياة والزمن ومن الأشخاص الموكلين بإدارة بعض الأمور الثقافية في المؤسسات الحكومية التي أدارت ظهرها لرياض، في تلك اللحظة الحرجة من حياته وتاريخه الشخصي مثل"اتحاد الكتاب العرب" والوعود المداهنة التي كان يعد بها الروائي حنا مينا الشاعر بإرساله إلى الخارج لغرض العلاج على حساب الاتحاد والدولة، لكن كل ذلك كان مجرد فقاقيع هواء، لوعود يطلقها بعض المسؤولين لشاعر مرهف وشفاف يثق بالجميع ويصدق كل ما يقال له مثل طفل لم يزل يواجه الحياة وينظر إليها نظرة أولى، نظرة فيها الكثير من البراءة والوداعة والأصالة الشاعرية.

لقد خُدع رياض وطعن علانية، كل ذلك كان يكتبه إليّ ويذكر الأسماء المسؤولة التي لم تفِ بوعدها، وبما كانت تطرحه عليه، كانت للدولة علاقات واسعة مع دول العالم الاشتراكي آنذاك، وكان من السهل عليها

إرساله لغرض العلاج، كان من الممكن أن يعيش رياض فترة أطول وربما سيكون بيننا لو تم ذلك حتى هذه اللحظة من العمر.

كان يصغرني بخمس أو أربع سنوات، وكان من الممكن علاجه في تلك البلدان ومن ثم التماثل إلى الشفاء والتخلص من المرض. مرض كهذا كان يعد من البدهيات الأولى في عالم الطب والجراحة في تلك البلدان، كان أقلها التبرع بكلية من شخص آخر تعرض إلى حادث ما ليتم الاستبدال وعملية زرع الكلية التي ستمكنه من العيش طويلاً.

لكن القدر وسوء المعاملة والإهمال في مستشفى عادي، غير قادر على تأمين الحماية والرعاية وطرق العناية الطبية كونه عاماً وغير متخصص، تضافرت كلها لتنهي حياة شاعر موهوب ومحبوب مثل رياض الصالح الحسين.

حين جاءت اللحظة الحاسمة، وغاب رياض عنا، هُرع الجميع إليه، وكان الموكب مهيباً، يتصدره بالطبع الكاتب حنا مينا وبعض المسؤولين في وزارة الثقافة واتحاد الكتاب العرب وجمع من الكتاب والصحافيين والفنانين ليشيعوه إلى مثواه الأخير في "مارع" إحدى القصيات الحلبية.

تعرفت إلى رياض الصالح الحسين حين كنت عائداً من باريس نهاية عام ١٩٧٩ متخذاً من دمشق محطة لغرض الانطلاق إلى بيروت ومن ثم العمل في سبيل الانخراط في إعلام المقاومة الفلسطينية حينذاك.

في دمشق كنت في منزل مشترك بين الصديقين الروائي والقاص محمد كامل الخطيب والناقد المسرحي نديم محمد، حين سمع رياض من كليهما بأني عندهما، فجاء ذلك الشاعر الشاب، المرح ذو الابتسامة النادرة والخلابة لنتعارف على بعضنا ونصبح صديقين حميمين، لم يفرق بيننا إلا ذلك الموت الذي خطفه مني ومن محبيه الآخرين، في بادرة زمنية لئيمة وأليمة..

لقد دلني رياض منذ بدء معرفتي به، إلى الحياة البسيطة في قاع المدينة، إلى الأسواق والمطاعم النادرة والحانات الناعمة والبديعة، الحياة في "الربوة" و"باب توما" وحارات دمشق القديمة، وإلى المقاهي الشعبية في "البزورية" و"الحميدية" والمقاهي المرتجلة لمحطة وكراج نقل الركاب ما بين دمشق وبيروت وعمان.

حين سافرت إلى بيروت لغرض الإقامة هناك، صرت أحن إلى الشام ولتلك الفسح الباهرة والأمكنة الظليلة، فغدوت أطل بين حين وآخر على دمشق، متفقداً الصروح المخملية والخمائل الناعسة التي كنا نلجأ إليها في الظهيرات والهواجر القائظة رياض وأنا، غذاؤنا اليومي كالعادة هو الشعر وما يخلفه من رؤى ودوالّ في الروح، مستمتعين بما تجود علينا به السانحات والتأملات والتسكع النوعي من أوقات ممتعة.

بعد حصار بيروت وإجلاء المقاومة عنها، لم أذهب إلى تونس أو عدن أو طرابلس، بل أصررت على الذهاب إلى الشام، لم يمانع أحد في الإعلام الفلسطيني في تحقيق تلك الرغبة، فخرجت بعد رحلة من عناء طويل وحصار شاق وصعب وخطر، لأكون مرة أخرى في دمشق كمقيم هذه المرة وليس زائراً عابراً. في تلك الأثناء وبجهد خاص من رياض عثرت على منزل بسيط للإيجار في قلب دمشق، استوطنت إلى حد ما في موضعي الجديد. وكان رفيقي الدائم بالطبع، هو الشاعر رياض الصالح الحسين، لم نكن نفترق البتة، نلتقي كل يوم، ونسهر كل يوم تقريباً، ونكتب الشعر ونقرأ لبعضنا، كتبت عنه قصيدة ونشرتها في ديواني الثاني "أقمار منزلية" فرح بها أيما فرح وراح يترنَم بها، حين نكون في حالة نشوة وصبابة، وقبل كتابة هذه القصيدة، كان قد بادر لفرط رهافته في الكتابة عن تجربة لقائنا الأول حين قدمت من باريس إلى دمشق، حيث نشر المقال في صحيفة "تشرين" الدمشقية التي كان يعمل في صفحتها الثقافية يومذاك..

جراء تراكم تلك اللقاءات، صرت أفهم على رياض بلغة الإشارة، دون

الالتفات إلى القلم والورقة اللذين كانا خير وسيط بيننا، لم أسأل رياض ولا مرة عن المرض الذي أصابه وأدّى به إلى فقدان حاسة النطق وعدم التكلم، ما عدا الهمس والدندنة..

كان رياض حين يكون في حالة تجل، يترنّم بأغنية وحيدة، لفريد الأطرش "يا ريتني طير لأطير حواليك" وكان يهمسني بها في أغلب الأوقات التي كنا نمضيها معاً. هنا كنت أتساءل حينها بين نفسي، كيف توصل رياض إلى حفظ مطلع هذه الأغنية؟ ومتى وفي أي وقت من مراحل حياته حفظها؟ ولماذا فقط هذه الأغنية ما علق في ذهنه وحسه ووجدانه وليس غيرها؟ ولِمَ لمْ يقلْ أخرى ثانية أو ثالثة غيرها ......؟ بيد أن تلك الأغنية حقاً كانت حين يردّدها رياض أراه يحلق في أفق سعيد وغامض، أفق مرقش بالفرح والبياض والبهجة، تلك البهجة التي لم تكن لتفارقه أبداً ناهيك عن الدهشة الطفولية التي أسبغت عليه سمة الشاعر الوديع، أو شاعر الطفولة..

كان الشاعر رياض الصالح الحسين شعلة من الحركة المتجوّلة وحزمة من الشعر المتوهج، إذ حيثما سار كان يضيء المكان الذي كان فيه. عاش فقيراً في غرفة شبه مَهدّمة في منطقة "الديوانية" التي لا تبعد أمتاراً قليلة عن منطقة "العدوي" الفارهة والغنية، فضلاً عن مرتبه البسيط في صحيفة "تشرين". في الغالب كان معه القليل من المال الذي يقترب من حالة الإفلاس، المال الذي يستطيع أن يشتري به علبة سجائر "الحمراء" أو يستطيع من خلاله دفع فنجان القهوة في مقهى "القنديل.."

البحث عن رياض الصالح الحسين

عماد نجار

على فنجان قهوة صباحي، على شرفة في حي (صلاح الدين) الحلبي، وبعد ليلة أمضينا معظمها في الحديث عنه، قالت لي خالتي فريزة قاطعة حديثاً بعيداً كل البعد عن موضوعه: "كلهن بيحبوه"، ثم نظرت في عيني وقالت: "كلهن بيحبوه لإنو مات".

كان خالي رياض أول من عرفت من عائلة أمي التي انفصلت عن أبي بينما كنت طفلاً. عرفته من خلال كتاب كانت تضمّه مكتبةٌ مقفلةٌ وُضعت للزينة في غرفة الضيوف في منزلنا في مارع. مكتبة دفعني الضجر والفضول الطفولي إبان فترة المراهقة إلى فك صاجها الخلفي، والانقضاض على كتبها تباعاً وبشكل سرّي. مكتبة اكتشفت لاحقاً أنها بقايا من مكتبته التي مات ليتركها وهو لم يبلغ التاسعة والعشرين من عمره.

كان الكتاب مهترئاً على خلاف معظم الكتب، وهناك أوراق ناقصة منه. لم أعرف أن صاحب الكلام الرقيق كجرح غضّ في الروح، البسيط كشتلات الريحان، المنساب كسنابل القمح في حقول مارع، هو خالي شقيق أمي. ذلك أن الكنية الشائعة لأمي التي حرمنا أبي من رؤيتها أو الحديث عنها هي (الصالح) دون (الحسين). وهي كنية يحملها معظم أفراد العائلة على وثائقهم الرسمية بينما يحمل رياض واثنان أو ثلاثة من أخوته كنية مركبة هي الصالح الحسين. هذا بالطبع ما عرفته لاحقاً عندما بحثت عن أمي ووجدتها.

كان اليوم الذي اكتشف فيه أبي موضوع سرقتي الكتب خلسة من

المكتبة يوماً فارقاً في حياتي، لا لأنه ضربني إلى أن تعب فاستراح ليعاود ضربي. بل لأنني اكتشفت أن كتاب (وعل في الغابة) الذي أحببته دوناً عن سواه - ربما لسهولة ألفاظه، وانسيابية معانيه، وربما للأسماء الأجنبية والمصطلحات الفلسفية والسياسية التي تخترق تلك الألفاظ والتعابير، فتشعل الأحجيات في عقلٍ حديثِ التشكّل لفتى في الرابعة عشرة، فينتظر ليسأل عنها الأكثر لطفاً من أساتذة الصف الثامن، ثم يعود ليفك شيفرات تلك القصائد ثانية، وربما لأن روحه المودعة بين الحروف كانت تريد ذلك. كان يوماً فارقاً لأنني اكتشفت أن ذلك الكتاب الذي صادف أنه كان في حقيبتي المدرسية عندما قام أبي بجردِ الكتب هو لخالي. لم يصدق أبي أن الأمر تم بمحض المصادفة، وأنني قرأت معظم الكتب السجينة خلف زجاج الخزانة المكتبة. كان مصرّاً أن أستاذ الفلسفة في المدرسة واسمه علي يونس هو من أخبرني بكل شيء، وهو من حرضني على كسر أوامره بعدم الاقتراب من الكتب.

مضت أربعة أعوام ولغز رياض ينخر في روحي. بعد أسابيع امتلكت الجرأة فصارحت الأستاذ علي الذي كنت أعرفه بالاسم والشكل ولا يعرفني بما حدث، فحدّثني عن رياض، عن الأسطورة الأكثر إعجازاً التي سمعت عنها. حدثني عن وحدته، ووحشته، وحزنه. عن حبه للحياة، وغدرها به. عن أحلامه بأن يقطف النجوم، ويرسم على ورق السماء الأزرق تلك الأحلام التي تكسرت على أرصفة الفقر والمرض.

قد لا أبالغ عندما أقول إن البحث عن رياض الذي توفي بينما كنت في الثالثة من عمري هو ما أخرجني من مارع وأنا في الثامنة عشرة. هو ما جعلني أهرب من تسلّط أبي وديكتاتوريته لأبحث عن أمي. وهو أيضاً ما جعلني أرفع الجدران عالية بيني وبينها هي وباقي أخوالي وخالاتي لاحقاً عندما لم أجد بينهم رياض.

رياض "الحار كجمرة/ البسيط كالماء/ الواضح كطلقة مسدس"

رياض "لص الأزقة الخرساء"/ "الذي يحمل بيده مفاتيح العالم".. "مفاتيح قرى تلملم نساؤها روث الحيوانات من الحقول ليخبزن عليه فطائر الزعتر الشهية"

رياض "صديق الآنسة "س"/ ذات الشعر الخرنوبي الخفيف/"س" التي يركض في شعرها حصان هائج وساقية أنين"

رياض الـ"متّهم لأنه قتيل ومتّهم بتخريب الدورة الدموية"

رياض الذي "يركض في عينيه كوكب مذبوح/ وسماء منكسرة / يركض في عينيه بحر من النيون / ومحيط من العتمة الطبقية"

لم يأخذ الأمر مني كثير وقت لأعرف أنني لن أجد رياض بين أفراد عائلته. كان يكفي ألا أجد عند أي منهم مجموعة واحدة من مجموعاته الشعرية الأربع التي أخبرني عنها قرين طفولته وشبابه علي يونس لأعرف أن رياض حتى وإن كان هنا، فإنه لم يكن هنا.

كنت كلّما شعرت أنني فقدت أثره في مكان، تفتّق جرحه في روحي ورداً يشق دروباً جديدة، تقودني إلى البحث في مكان آخر.

جمعت عشرات المقالات عنه، لم أترك وسيلة للتواصل مع كلّ من ذُكر في تلك المقالات والمواد الصحفية إلا واتبعتها لأصل إلى أصدقائه. فكرّت أن من لا تجده بين أهله تجده بين أصدقائه. وها أنذا، وبعد سبعة عشر عاماً من رحلة البحث أقر بأنني لم أجد رياض الصالح الحسين. ها أنذا بعد سبعة عشر عاماً من البحث أجد نفسي أمام عبارة لا أدري إن كان قد تركها لي رياض لأحلّ اللغز.

"أصدقائي كثيرون / الذين يحبّونني لا يتركون لي فرصة للموت" ضمّن رياض هذا العبارة في إحدى قصائد مجموعته (بسيط كالماء واضح كطلقة مسدس) التي نُشرت عام ١٩٨٢ ومات قبل أن ينتهي ذلك العام.

ربط رياض بقاءه حياً بمحبة أصدقائه ومات بعد أشهر قليلة.

تساءلت عندما صفعتني العبارة فجأة بعد قراءتها عشرات المرات، هل اكتشف رياض بعد أشهر قليلة من كتابته لتلك العبارة أنه كان مخدوعاً، وأن لا أصدقاء له فمات؟!

فكرت لماذا لم يزر قبره أحد الأصدقاء الكثر، المتنادين بصداقته، البكّائين عليه كلما ذُكر؟! إن كان للقليل منهم العذر لوجودهم خارج سوريا، فما عذر الآخرين وخاصة الموجودين منهم في حلب على بعد أقل من نصف ساعة عن قبره.

لماذا لم يفكر أحدهم بطباعة أعماله الكاملة بعد موته أو إنجاز فيلم عنه؟! رغم أن الكثير منهم بات في مراكز قرار ثقافية وأدبية وإعلامية؟! هل بالفعل السبب هو انعدام وسيلة للتواصل مع عائلته وورثته لأخذ موافقتهم على خطوة كتلك كما برر لي أحدهم ؟! ولكن الأمر لم يكن ليكلف أكثر من الوصول إلى مارع، وسؤال أي شخص من أبناء القرية عن أحد أفراد العائلة.

لماذا لم يحتفظ أحدهم بصور رياض؟! فبشقّ الأنفس استطعت جمع ثمان عشرة صورة فوتوغرافية له، صورتان فقط من عند الراحل مهدي محمد علي أحد أصدقائه، والباقي من عند العائلة. وللمفارقة فإن القسم الأكبر من تلك الصور كان يحتفظ به أبي الذي لطالما كان التنافر الواضح سيد الموقف بينهما.

هل كان لفرادة رياض وموهبته غير الاعتيادية ورحيله الباكر المفاجئ الصادم أثر في جعل كل من عرفه ولو بشكل عابر يعطيه بعداً من الأسطرة لشدّ ما كان يحتاجها من شهد تلك المرحلة التي سطع فيها نجمه ثم خبا؟!

هل عليّ أن أعطي لرياض قيمته الحقة التي يجمع عليها كثيرون من أنه كان بالغ التأثير بمن عرفهم لدرجة أنهم كانوا مخدوعين بحجم وجوده في حيواتهم، لكنهم وما إن يوضعون في مواجهة مع الحديث الدقيق عنه حتى يكتشفوا حقيقة أن رياض لم يمر في حيواتهم إلا كطيف؟

على الأغلب ستبقى كل تلك الأسئلة معلقة في الهواء، بينما سيبقى رياض في مكان آخر لا يعرفه أحد سواه وإن كنت أخاله في هذه اللحظة " فوق الدراجة / سعيداً، ضاحكاً، منتشياً / يدور في فناء قبره (حينما كان حيّاً سقط عن الدراجة ومات)"

مات عندما كنت في الثالثة من عمري بحثت عنه كثيراً ولم أجده إلا في مجموعاته الشعرية الأربعة التي يضمها هذا الكتاب، فالشكر لكل من كانت له مساهمة في إخراجه إلى النور حتى ولو بأمنية.

أحمد يوسف داوود:

شعر رياض الصالح الحسين تعبير الطفولة عن ذاتها وهي تواجه العالم بالدهشة وباللغة الخاصة.

أمجد ناصر:

هناك شعراء يرأف بهم الزمن، يعطيهم فرصة بناء قصيدتهم سطراً سطراً، فيما هناك شعراء يتحققون، بمواهبهم الفذة، من أعمالهم الأولى. أنا (وكثيرون مثلي) من الذين يحظون، بزلفي ماكرة، بنفحة من رأفة الزمن القاسي، بينما لم يكن رياض الصالح الحسين ممن يتزلفون إلى الزمن، ممن يحتاجون إلى رأفته، فقصيدته جاهزة وبصمته حاضرة منذ توقيعه الأول، وليركب الزمن أعلى خيوله.

أحمد الملا:

في نهاية الثمانينيات وصلت بين أيدينا في مدينة الأحساء مجموعته الشعرية "خراب الدورة الدموية" لشاعر أنجز أسطورته ومضى مكتملاً في المخيال الشعري، تناقلنا كتابه مثلما نهرب في ثيابنا؛ صاعقة عن أعين حرس الحدود، وانتبهنا لشراسة اللغة اليومية ووحشية القول، ولم نأخذ ذلك على محمل المتنبئ، لكنه كمن رأى بعيون القتلى ولم يحتمل أكثر. كنا عصبة تقرأ بنهم وتكتب على مهل في أرض تقدس الأساطير، وتعتقد بكلام الموتى الذين خطفوا صغاراً، تخبئ كلماتهم القليلة في الآبار المخبوءة بين طيات الطريق. وهكذا نقرأ شعر رياض الصالح الحسين.

بشير العاني:

رياض الصالح الحسين آخر ورثة القصيدة اليومية.. وأول مجدديها.

جاكلين سلام:

هذه اللقطات اليومية التي رفع رياض من شأنها وجعل منها «أساطير يومية» لا تحضر فيها الآلهة وأسماؤها ورموزها، بل يضع في القصيدة قلبه إلى جوار حذائه والجوارب والقنابل والعشب.

جولان الحاجي:

إنه الحنين النقي إلى عالمٍ لم يكن قط جميلاً إلا حين نتذكره.

خلف علي خلف:

وقد يوافقني البعض القول أن تجربة رياض الصالح الحسين هي أكثر اكتمالاً مما قدمه الماغوط في هذا السياق، بل إنها قادت قصيدة الماغوط - إذا كان لابد من اعتبارها الأب الروحي لها – إلى هدوء داخلي. يقودها نحو الذات أكثر من المحيط.

علي سفر:

رياض الصالح الحسين لم يمت، إنه مازال حياً، هذا ما تخبرنا به الوقائع الثقافية منذ خمس سنوات وصولاً إلى أيامنا الراهنة.

ونخاف من الوصول.

كاظم جهاد:

شاعر نفاد الصبر واختراق العالم والحياة.

محمد جمال باروت:

قصيدة رياض، قصيدة اليوم، قصيدة الكلام، وقصيدة الشعور ذات البعد الواحد أو الصوت المفرد والمناخ الغنائي، ذات البنية الخيطية وذات الرؤية الجزئية (اهتمام بالأشياء الصغيرة).

مصطفى علوش:

رياض ابن الخراب اليومي، ابن الأرض المتعبة وهو أيضاً ابن الجمال والحب والحرية والخير، صفاؤه الداخلي جعل قاموسه اللغوي الشعري ينتج تلك القصيدة الموجوعة، قصائده كأنها آخ مديدة، آه مديدة.

منال الشيخ:

ثمة أيقونتان في أعمال الصالح: الحزن والنبوءة.. أقفُ مشدوهة لهذا الحزن الذي لا ينتهي ولا يتوقف حتى بعد توقف نبضاته.. أكاد أجزم أنني أقرأ تبصيراً أو استشرافاً روحياً لما يحدث الآن وحتى اللحظة الأخيرة من تاريخنا الراهن.

نبيل سليمان:

يشكل رياض الشعر بالبساطة المستحيلة ونقائض التاريخ والطبيعة، فإذا بكون آخر قوامه الحزن والاستفزاز واللعب الطفلي.

تنويه: تمت مراجعة القصائد غير المنشورة في المجموعات الأربع والتي نشرها موقع جدار الإلكتروني، وقد ارتأينا ألا ننشرها أولاً لعدم وجود مصدر واضح لها. وثانياً لأن رياض الصالح الحسين أشرف على طباعة مجموعاته الثلاث الأولى، وحتى مجموعته الأخيرة (وعل في الغابة) كان قد أتمّ مخطوطها وضمنها الإهداء بنفسه. والواضح أنها حتى لو كانت من أشعاره، فقد أسقطها هو.

فهرس المحتويات

سورية

يا سورية الجميلة السّعيدة

كمدفأةٍ في كانون

يا سورية التعيسة

كعظمةٍ بينَ أسنانِ كلب

يا سورية القاسية

كمشرطٍ في يدِ جرّاح

نحن أبناؤُك الطيّبون

الذين أكلْنا خبزَكِ وزيتونَكِ وسياطَكِ

أبداً سنقودُكِ إلى الينابيع

أبداً سنجفّفُ دمَكِ بأصابعنا الخضراء

ودموعَكِ بشفاهنا اليابسة

أبداً سنشقُّ أمامَكِ الدروب

ولن نتركَكِ تضيعين يا سورية

كأغنيةٍ في صحراء.

المتوسط


ISBN 978-91-87373-63-3
9 789187 373633

«لم يكن رياض الصالح الحسين ممن يتزلفون إلى الزمن، ممن لم يحتاجوا إلى رأفته، فقصيدته جاهزة وبصمته حاضرة منذ توقيعه الأول»

أمجد ناصر

وقد يوافقني البعض القول أن تجربة رياض الصالح الحسين هي أكثر اكتمالاً مما قدمه الماغوط في هذا السياق، بل إنها قادت قصيدة الماغوط - إذا كان لابد من اعتبارها الأب الروحي لها – إلى هدوء داخلي. يقودها نحو الذات أكثر من المحيط.

خلف علي خلف

شاعر نفاد الصبر واختراق العالم والحياة.

كاظم جهاد

كتب خلف علي خلف عن رياض الصالح الحسين: «سيأتي اليوم الذي يصبح فيه تدقيق معلومات عن رياض أمراً ليس هيناً» والصحيح، أن هذا اليوم جاء منذ زمن. وإذا أردنا التحديد، كان تماماً يوم السبت: ٢٠/١١/ ١٩٨٢، يوم وفاة رياض الصالح الحسين، واختفاء الإنسان الوحيد الذي كان باستطاعتنا سؤاله عما يصعب ويلتبس علينا معرفته عنه وعن حياته، إلاّ أننا يوماً لم نفعل. وكأنه كان من الطبيعي ألاّ نفعل، فمن كان يصدق، من كان يخطر على باله، أن رياض سيموت وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين!؟

منذر مصري

